عصير الكتب
رواية
الأشقر
عبد الرحمن توفيق

اسم الرواية : الأشقر

تأليف : عبد الرحمن توفيق

تقييم ومراجعة : همام أحمد ، عبدالفتاح أنور

تصميم الغلاف : إسلام محمود

تنسيق داخلي : عصير الكتب للنشر الإليكتروني

"" الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر الكاتب

ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار "" ..

جميع الحقوق محفوظة C

عصير الكتب للنشر الإليكتروني

الأشقر

عبد الرحمن توفيق

اليوم هو السبت الثاني من شهر ديسمبر البارد، أول أيام الأسبوع الماطر كما تدّعي وتحذّر نشرة الأخبار الجوية، وأنا مدّثر في غطائي فوق المقعد الواثر أمام التلفاز، جالسا في وضعية جنين لم يصدر أذن خروجه من الرحم بعد. طلّت علينا المذيعة في ثوب شتوي ضيق وفوقه رداء أبيض يعلوا ركبتها المغطاة بطرف الثوب الأبيض أيضا، وقالت وهي تبتسم وتخطو بحذائها البني الضخم على الشاشة " غدا ستمطر السماء بشدة على معظم أنحاء البلاد، فبرجاء اتخاذ الحيطة والحذر " ولم تخبرنا بما ينبغي علينا فعله تحديدا حيث انتهت نشرة الأخبار وتبعتها دقائق من إعلانات المشروبات الغازية المتعددة بإلحاحها المقيت على برودة شربها، فكيف برب السماء تُشرب المياه الغازية باردة في هذا الصقيع المقيم. أنا لا أستغرق عادة في مشاهدة التلفاز، خاصة النشرات الإخبارية التي تجعلني أشعر برغبة عارمة في القيء، لهذا فقد أغلقت التلفاز مباشرة عندما أدركت أن موعد عرض فيلم (حبيبي دائما) هو مساء السبت المقبل وليس مساء هذا السبت، شعرت بالخجلان من ذاكرتي وطفقت أبحث عن سبب واحد لا يجعلهم يعرضون الفيلم الآن تحديدا وربما السبت القادم أيضا ولم أجد سببا واحدا سوى أنهم يرغبون في عرض المزيد من التفاهات الأخرى التي لا تحمل من الفن سوى مقدار ما يحمله الدب من ريش.

قتلني الملل بعد أغلاق التلفاز بدقيقة واحدة، فوالدتي نائمة وليس لي من المتعة الليلة مقدارا هينا أشعر معه بالحياة تتدفق عبر أطرافي، ولهذا بادرت بالنوم قتلا لأي محاولة بائسة قد يختلقها عقلي لخلق متعة صورية يواري بها سوء حالتي، وغرفتي لا تشبه مثيلاتها، فلم أعلق فيها مصباح منذ قرابة سنة، الظلام فيها حالك طالما بلغنا المساء، يؤنسني فيها ضوء القمر وتلاطفني نسمات الهواء، وفي الصباح أنظفها كل يوم قبل الذهاب إلى العمل فأنا لا

أسمح لأحد غيري بدخولها ولا حتى أمي، في الليل أبقى فيها بمفردي أطالع النجوم البعيدة كأنها أحلامي الضائعة، قلما تعثرت وأنا أخطو فيها لأني أحفظها وأبقيها دائما مرتبة مثلما هي في مخيلتي، وأحيانا أستعين بضوء الهاتف المحمول عندما أبحث عن شيء، تحوي سرير وخزانة الملابس ومرآة ونافذة - كما ذكرت - تقع خلف سريري، هناك حيطان لم أنتبه لها منذ مدة حتى نسيت وجودها، يشعرني الظلام بالراحة، أشعر أني هناك في السماء قبل بداية كل شيء، هائما أسبح في ملكوت الله، أطوف بمخيلتي والظلام شاسع ويحاوطني مثل بطن أمي، أشاهد الحياة من فوق سريري فأجدها مثل مسرحية هزلية واضحة تماما بينما لا أكاد أبصر أصابعي

*****

السيّارات مكدّسة في الطريق الموحل نتيجة أمطار الصباح الكثيفة، والحافلة التي أقف فيها بصعوبة تتحرك كأنها نسيت شيئا في ثنايا الوقت تبحث عنه دون توقف، فلا تعير المسير اهتماما يُذكر، تلتصق أجساد البشر في المنتصف وعلى الجانبين صفّين منتظمين من المقاعد البلاستيكية الزرقاء، المقاعد غير مريحة فينزلق معظم الناس الجالسون عليها قليلا حتى يتجنبون ألم الفقرات العظمية، وحين اقتربنا من ناصية الشارع صاح أحدهم في آخر الحافلة.

: توقف، سأنزل هنا

تمنيت لو أن القائل يمزح، فبالله عليه كيف سيعبر كتلة البشر هذه وصولا إلى الباب، كنت قلقا بهذا الشأن كثيرا حين سمعت همس رجل سمين يقف خلفي ويلتصق بطنه بظهري

: لماذا دائما من ينزلون، يكون مكانهم في آخر الحافلة ؟؟

بدى سؤالا مثيرا للتأمل، لكن لم يكن المكان ملائما لنموه وترعرعه في رأسي، فبطرته من جذوره حتى لا يصيبني بالخبل، وجاهد كل من بالحافلة في إفساح المجال ليمر الشاب النحيل إلى الباب الوحيد للخروج نحو الطرقات الرحبة، وحين مر من خلفي كدت ألتصق بالخضراوات التي تحملها السيدة الجالسة عن جواري، ورغم تملّك الزكام منّى إلا أني قد اشتممت رائحة البقدونس التي تشتمل عليها الحقيبة. وحين عدت إلى وقفتي الأولى أدركت أني سأقضى بقية الساعة الجارية في اختناق الهواء المكتوم، ورذاذ معبئ بالعدوى الشتوية المرهقة، وقد سئم جسدي التلاصق بخلايا الآخرين رغم البرد، فقد صعد رجلان آخران جعلا وضعي كجنين يزاحم توأمه في كيس الرحم المطاط، ولم أستطع معاودة التمسّك بماسورة منتصف الحافلة، فمدت يدى جواري لأبصم بأصابعها الخمس على جانب النافذة الداخلية المغلقة، وقد أحسست ببخار الماء يتخلل خلايا أصابعي الرطبة.

ثم مضت نصف ساعة من المعاناة المرهقة، حتى بلغت الحافلة مرادي من الرحلة الصباحية المكررة خمسا في الأسبوع، ولامس جلد حذائي اللامع طبقات الوحل المغطى لسطح الشارع، فكأنه لقاء صدامي يسبب لي خيبة أمل، فلم يتوقع حذائي وأنا أنظفه في الصباح بعناية بالغة، أنه سيلتصق ببقايا المطر فوق الرمال الكئيبة، وسيغدو لونه البنّى رماديا مرقعا.

أنزلتني الحافلة على ناصية شارع – حلمي باشا- بمنطقة مدينة نصر حيث يقع مقرا لشركة الكهرباء العامة للمدينة كلها، وهو المكان الذى أعمل فيه أنا – عبد الحميد حسين – منذ قرابة الثلاثة عشر عاما موظفا محترما في قطاع الخدمة العامة، وخاصة القسم الخاص باستخراج التراخيص بالدخول على شبكة المياه، كان على ناصية

الشارع عربة خشبية لبيع الفول لصاحبها – عباس – الذى كان أبا روحيا للموظفين لأنه الوسيلة الوحيدة حتى يحصلون بسرعة على وجبة صباحية مجهزة خلال الخمس سنوات الأولي لي في الشركة، لكنه قد أقلع عن الوقوف في المكان المخصص له منذ أمد، ولا زلت إلى الأن كلما مررت جوار مكانه القديم أتذكر وجوده المنعش للأجواء، ورائحة البصل الأخضر المنتشر على العربة كغزو فضائي، وأكوام البشر المتناثرة كلماتهم في الهواء المتخم بالشبع اللذيذ وبلا مبالغات في الأسعار تشعرهم بمرارة انكسار الحاجة الملحة إلى الإفطار وترجئه حلما جميلا في جدول الوجبات المؤجلة، وخلال مرورى في الشارع تذكرت أن عباس قد رحل نتيجة تضارب مصالحه مع المطعم المبالغ في الأسعار الذى يقع على بعد شارعين من الشركة، وبالطبع حفنة من النقود لرجال البلدية جعلتهم يفتحون أعينهم النائمة عن عباس الذى فشلت كافة حيله القديمة معهم فجأة.

ثم قبيل باب الشركة هناك محل – عم حموده – وهو في الحقيقة إسما يوحى بأن صاحب المكان رجلا عجوزا في الستين، يبصر من خلال نظارة مقعرة ضخمة وسميكة كزجاجة مياه غازية، لكن في الحقيقة فأن صاحب المحل رجل يقاربني سنا، ولا زال يتشبث بآخر أهداب الشباب ومظاهره المبهجة، ويصبغ خصلات شعره الخشن بعناية، ويحرص على كيّه باستمرار ليشبه عبثا صورة وهمية لمطرب من السبعينيات، وقد سمعت ذات مرة بأنه عضو فيما يشبه عصابة تدير شبكة من الساقطات لكنني لم أتأكد بنفسي أبدا من الأمر لكني لا أرتاح له على كل حال وفي هذه الأيام صرت أصدق ما يقال عن أي شخص فلم تعد عندي تلك السذاجة الأولى التي تعميك عن توقع الأسوأ من شخص ما، وفي تلك اللحظة بالتحديد إذ به يرفع الباب المعدني للمحل، وقد رآني وبالكاد فعل، فحيان بفتور لم يجتهد في إخفاءه وهو شعور متبادل من عدم الارتياح بيننا على كل حال

: صباح الخير يا أستاذ عبد الحميد

ابتسمت له كطفل تم تسميته للإجابة عن سؤال جغرافيا لدرس لم يحضره قط

: صباح الخير عليك يا حموده

تمشيت قليلا إلى أن وقفت أمام البناية الحكومية الثابتة رغم الوقت والهزّات، وحاولت أن أعدّل في هيئتي بقدر يسمح لي بأن أشعر بالارتياح لحالي ولو قليلا، نظرت للسماء في الأعلى فوجدتها ملبدة بالغيوم البيضاء كقطع من الحلوى الصباحية الهشة، وتمنيت أن تستمر في زخاتها السعيدة لربما تزيل الأتربة القميئة من على واجهة المبنى فترتاح له نفسى، ففي الحقيقة كلما وقفت بمواجهة مكان عملي وألوان الطلاء الكئيبة في الداخل كانت أو في الخارج، أشعر بانقباض في نفسى وتقلص في معدتي يكاد يصل إلى حد الغثيان، وهذا غريب ففي العادة لا يهتم أحد في قاهرتنا العزيزة بألوان الأشياء، فلا يتذكّر العابرون أنهم قد تناسوا تفاصيلا تزيد حياتهم الرمادية بهجة قد تزيح عنهم بعض الهم المكدس في أدراج الرحلة الطويلة نحو السخط، وقد اعتدت أن أكون غريبا في اهتماماتي بتلك التفاصيل التي ترهقني، ولم أعد استغرب الأمر عندما تشغل بالى فكرة مختلفة وقد اعتدت أيضا ألا أشارك ملاحظاتي الدقيقة تلك مع أحد منذ أمد، وآخر مرة شاكرت رأيا مع – حامد - صديقي في المكتب حول رغبتي في اقتناء باقة من الورود وجلب إبريق من الفخار الأزرق لاحتوائها، وكنت أتمني وضعها جوار مكتبي الخشبي الصغير المكدس دائما بأشياء يومية لا حاجة لها، بل والاعتناء بالأزهار بشكل منتظم وبنفسي، لكن لم أخبره كي لا أزيد من تعجّبه قدرا، وقد أزعجتني ردة فعله الحادة تجاه فكرتي البريئة، فلو قال فقط اصنع ما شئت لكنت جلبت الأزهار في النهار التالي دون تفكير أو اكتراث لرأيه الحقيقي الذى كنت سأدرك أنه تفضّل مشكورا بإخفائه عني، لكنه

رمقني بنظرة استخفاف لا يطيقها ضفدع حديث الولادة، ورفع حاجباه اشمئزازا مني وكأني طالبته بتربية ظربان أحمق حليق الرأس والذيل، ثم بعدها فغر فاه ليتحدث كأنه سيلقي بالكلمات من طرف شفتيه الغليظتين وقال بخبث مفرط

: هل أنت مرهف الحس لهذه الدرجة ؟

فأجبته دافعا تهمته المزعومة عنّى، وإن كنت لا أرى فيها ما تضيق له روحي، أو تنفر منه نفسى، بل على تماما فهي تهمة تمنيت أن أحصل على ختمها في فترات سابقة، خاصة الجامعة

: ليس الأمر على هذا النحو يا ظريف

أجاب ساخرا ودون اهتمام لرد فعلى الذي يعلم أنه لن يزد عن إحجامي عن الحديث معه لبضعة أيام لأنني كما يعرف الجميع " لا أطيق الحديث مع الناس بشكل منتظم ولو فعلت لانهارت السماء حتما وانطبقت على الأرض في عناق مدمر

: بالطبع أعرف، هذا حقيقي يا كازانوفا الشركة

وبعدها وجه نظرة لها معناها إلى زميلنا من الدور العلوى – حاتم - المستند إلى باب غرفة المكتب فطرف لي بعينه وهو يسرف في هذه الفعلة كأنها مرض لعين أصابه منذ الطفولة وهمس لي كأنه سيتفوه بمزحة جنسية

: اعطني حبا وحنانا يا صديقي العاشق

ثم أخذ يحك رأسه وأقسم أنه كاد يسعل من فرط تدخينه المفرط في الصباح، حتى أني قد اشتممت رائحة فمه الكريه بشكل جلي من موضعي خلف المكتب، وأدركت أنهما يلمحان إلى كونى أعزبا كبيرا حيث أني قد بلغت ساعتها – منذ شهران على ما أذكر - السابعة والثلاثين من العمر وقد كانوا يظنون أني أرغب في جرّ قدم – هدى – زميلة حاتم في الدور العلوى، وظل حاتم يغزل في الفكرة حتى

عششت في رأسه وملأت جنبات فكر العديد من زملاء العمل من شلته القميئة، وظلت الفكرة ثابتة في رأسه حتى أقسمت أنه لا علاقة لي بها من قريب أو بعيد، ولم أكن أخشاه تماما، أو أخشى على سمعتي بشكل ما كما يحسب هو في نفسه المريضة التي لا تعنيني وساوسها في شيء، فأنا كما يقولون – رجل كالجنيه الذهبي – لا غبار على اسمي، لكن فقط ليتوقف عن تلميحاته السخيفة لي عندما أحادثها بنفس منفتحة وهى عادتي في الحديث مع النساء بشكل عام، لكنه لا يكاد يصدقني كأني أحد أبناء يعقوب المشاركين في تهمة الذئب الباهتة، وليت حاتم كان يريد لي الخير لكنني عرفت بعدها من – عامر – صديقي في شؤون العاملين أثناء محادثة منفتحة خلال فترات العمل الرتيبة والمملة ما اثأر ذهني وجعل صورة حاتم تتشوه بأكثر مما تحتمل، فقال أن حاتم كان يرغب في إقامة علاقة مع الأرملة الفاتنة – يقصد هدى - التي اعتقد أنها معجبة بي بشكل ما، ووقتها قد ضحكت على كلماته بلا داع وهى طريقة طفولية مني في دفع التهم أو الشائعات التي أخشى على نفسي من رواجها، وأيضا لأني قرأت بشكل ما لمعان عين صديقي عامر الذى كاد يصدق الرواية المتداولة عالية الشعبية بين أصدقاءنا الذكور في محفل الشائعات العام الذى يستضيفنا يوميا للعمل، حتى أني أذكر ما قلته له نصا يومها بهذا الشأن الذى أزعجني بشدة

: أنا لا أعتقد حقا أنها معجبة بي، وعلى الأغلب فهي لا تفعل

فأجابني نافضا مسئوليته عمّا حكاه

: لست أدرى أنا أيضا كيف تنتشر مثل هكذا شائعات عنك، الجميع يعرف أنك رجل لا غبار عليك، لكنني يجب أن أصدقك القول أن السيدة معجبة بك بشكل ما، أو على الأقل هذا ما أعتقد من خلال تفسير ضحكاتها معك على أتفه الأمور فأنت لست مهرج عصرك على حد علمي، ومناقشتها معك في بعض تفاصيل حياة ولديها

الصغيرين، حتى أنها أخبرتك عن الألوان المفضلة لكل منهما يا رجل ألم تخبرني بهذا من قبل؟

بدى لي محقا بصورة ما، حتى أنني كدت أقتنع، وهو يميل إلى مدحي بشكل لطيف في بداية الحديث ليمتص نفوري من الأحاديث الحادة والشريرة بشكل ما، وربما أحب أن يمدحني الناس ولو قليلا حتى تزال حدة التوتر بيننا، وأبدأ في الإنصات جيدا لما يقولون، لكني لم أكن مغرورا تماما كما يعتقد – عاشور – زميل عامر في المكتب، فهو رجل خمسيني مسرف في تصديق الشائعات عني، ويرمقني بنظرات نارية مخيفة، على كلّ فخلال بقية حديثي مع عامر حاولت جاهدا أن أحافظ على مسافة فاصلة بين اسمي واسم هدى في كل الجمل التي أصيغها بعناية، ثم في النهاية أنهيت الحديث بلطافة رغم ضيقي وهذا حتى لا أخسر صديقي – الوحيد ربما – في هذا المكان البشع

: أنا لا يهمني الأمر على الأطلاق كما أخبرتك، وبالتأكيد أعرف أنك لن تصدق هكذا كلمات من شخص مثل حاتم، أنا لا أكرهه كما تعرف لكنه لا يكف عن الحكايات من عقله الذي يكون مريضا في أغلب الأحيان، وأنا لا أريد التورط في مشكلة مع السيدة وهي تقدرني كزميل، وأنا اقدرها كزميلة وربما كصديقة على أقصي تقدير، ولا تسيء فهم كلمة صديقة كما يفعل البعض وإلا كنت مغفلا ساذجا مثلهم، فالجميع يحوّل المعان ليحصل على إجابة دنيئة تشفي غليله في من يمقت ويكره، ولو ستسيئ فهم الكلمة فاعتبرني لم أقلها.

وفي الحقيقة أنا شخص محافظ في كلماتي جدا، ومتحفظ في أحاديثي إلى أقصي درجة لأنني أحسب بعض العاملين معنا هنا أفاع يترصدون سقوط أحدهم في مصيدة المشكلات اليومية التي يبرعون في حياكتها بما يتناسب مع مقدار كراهيتهم أو حبهم للشخص، ليس شرا مطلقا منهم لكنهم حقا يريدون ملء فراغ حياتهم السلبية الفارغة من المعنى، والخالية من المضمون إلى أبعد حد والكئيبة رغم

التظاهر إلى، وأمر هدى لم يكن يشغلني كثيرا ساعتها على خلاف ما توقعه عامر، وحقا لم أعاملها يوما خارج هذا الاعتقاد الحقيقي بداخلي والراسخ بأنها غير معجبة بي حقا، وحتى لو فعلت فأنا لا أبادلها نفس الشعور، أو ربما لم أفكّر في الأمر بهذه الصورة من قبل، وقبل أن أغفو في اليوم الذى تحادثت فيه مع عامر، فكّرت أنه لو تجاوزت ضميري من أجل علاقة معها فلن أسامح نفسي لأنها لديها طفلان في عمر الزهور، ولن أجعلهما يعانيان نفسيا من مقاسى الحياة البشعة بسبب تشويه سمعة والدتهما بأي شكل من الأشكال، فلدى نقطة ضعف تجاه الإساءة إلى الأطفال، لأني أعلم أن هناك احتمالا بأنهم لن يندفعوا في عجلة الحياة البوهيمية التي نعيشها، ولو أنه احتمال هزيل كخيط من الحرير الناعم، لكن ليس لدي أدنى مشكلة لو فعلها شخص آخر غيري ولن أشعر عندها بالخيانة أو بالندم، وعلى الأغلب فهي امرأة رزينة على كل حال ولا أعتقد أنها تفكّر في مثل هكذا أمور، هذا بالطبع لو لم أكن ساذجا في فهم النساء كما تدّعى أمي.

صعدت إلى مكتبي في الطابق الثالث دون أدنى مشكلة، ودون إضاعة نصف ساعة كما يفعل –حامد- في التحيات الحميمية، فقط سلّمت على – حسّان – في الطابق الأول بروية وهو يحادث – شكرية – زميلته البدينة الشبيهة ببرميل من المخلل، وقد كبحت جماح رغبتي العارمة في السخرية من شكل شعره القصير الأبيض الذى جعل من رأسه كأنها حبّة شمّام مغلفة بكيس بلاستيكي أبيض شفاف ورقيق جعل مظهره سخيفا، خاصة وأنه قد قص شاربه أيضا وكان يضفي إلى وجهه الطفولي – رغم كبر سنه – مزيجا من الحنكة والفخر الشديدين، على خلاف حقيقة عقله الصغير المهتم بصغائر الأمور، ومضى من خلفي – عزام – مدير قطاع الموارد البشرية في الدور الخامس وهو يهرول مسرعا كأنما تطارده حية، وعلى الأغلب فلا عمل لديه يستحق الركض لكنى أحسبه شخصا

يحب التظاهر بالجدية في العمل، على الرغم من نكاته السمجة التي يحسبها آخر صيحات المزاح، وقد سخر من – حسّان – قائلا

: يبدو أن الحلاق قد فتك برأسك المسكين يا حسّان، عليك مقاضاته أمام محاكمة قضائية عادلة

وفي الحقيقة لم أفهم المزحة بشكل جيد، ولا أحسب عقلي أصابه عطب ما لأن شكرية وحسّان أيضا لم يفهما المغزى منها، وقد انزعج حسّان ضمنيا لأنه شعر بالإهانة لكنه لم يعقب لأنه كما أوضح لنا

"لا يحب الشجار في الصباح، ولا يتفنن في اختلاق المشكلات لأنه رجل كبير محنك لا تشغله صغائر الأمور"، ثم بعد أن صعد غريمه الضئيل الحجم وضيق الأفق عبر المصعد زلق المقبض، قال حسّان برزانة خطيب مسجد وهو يغادرنا

: اللهم جنبنا الشيطان يا رب

وبالطبع كنت أعرف أنه يقصد صاحبنا في المصعد، لكنى لم أعقب كون شكرية التزمت صمتا عميقا لا يشبهها في الحقيقة فشعرت بالرغبة في تقليدها، ثم مضت ثوان لم ينبس أحدنا فيها ببنت شفه، وفي الحقيقة لم أعرف ما عليّ فعله بعد أن غادر حسّان، فأنا لا تربطني الصداقة بشكرية وعلى الأغلب ستحادثني بشكل ودي كأني صديق طفولتها منذ حضانة – عمر بن الخطاب – العتيقة التي ترددت عليها قبل سنوات على ناصية شارعها الواسع، كأنه مجرى نهر، وأردت أن أتخلص من الحرج لأني أمقت طريقة كلامها على خلق الله كما يعرف الجميع دونها، فألقيت تحية فاترة عليها، فلم تهتم لي، كما لم تهتم كثيرا لغضب حسّان لأن الشأن لا يعنيها ولأن تربطها مع – عزام - مصالح مشتركة خاصة وهو رئيس قطاع مديد السلطة وواسع النفوذ والحيلة، وبالتأكيد لن تتطوع للدفاع ع حقه المهضوم في الشركة كما يقول لأسفلت الشارع ومكاتب الشركة

واحدا واحدا، وهى لا تعنيها تأخر ترقيته رغم قدم سنه، وامتداد سنوات خدمته المخلصة والكئيبة في أروقة الشركة المتربة على الدوام، كما تجمعها و – حسنية – سكرتيرة عزام صداقة متينة تدور حول أسعار الخضر ووصفات الشيف فلان العجيبة، أو الشيف علان الرهيبة، ويتبادلان أحاديثا بالساعات في مكتبها الضيق بالدور الأول عندما يصرفها المدير للتخلص من إزعاجها المتواصل ونبرة صوتها المزعجة، وعينها الثاقبة – الدائرية – كما يطلق عليها سرا، خوفا من غضبها بشكل يثير الريبة.

خلال الدقائق القليلة التالية صعدت الدرج المؤدي للدور الثالث حيث أعمل، وأنا لا أحب أن أستخدم المصعد حتى تنشط دورتي الدموية قليلا من خلال الحركة ولو لبضع درجات، ولم يستوقفني شيء وانا صاعد سوى عنكبوت هزيل تدلي عبر خيطه كأنه يتلصص على الصاعدين القلائل، وكان هناك بعض الرمال الخفيفة غير الملاحظة في الأركان الجانبية التي من الصعب الوصول إليها إلا بجهد شديد غير متوفر لدي عم – سيد – عامل النظافة في البناية، وحين تذكرت عم سيد بحثت عنه بنظري فوق الدرج فلم أجده، وربما هو الشخص الوحيد الذى قد أهتم حقا بإلقاء التحية الصباحية عليه، ربما لأنه ضعيف السمع ومن الأرجح ألا يسمعها مني فلا أشعر بإهانة حين لا يجيب.

وفي داخل المكتب لم أجد أحدا كالعادة فحامد لم يصل بعد، كانت هناك فراشة قد عبرت النافذة خلف مكتبي لتكمل ضياعها في المبنى فكأنما أصابها تيه من نوع ما لتصيبني ببهجة الصباح البسيطة ببراعة طبيعتها الخلابة، ومضت ببراعتها نحو المكان الذي كنت أتمنى أن أضع فيه أزهاري الضائعة، وكأنما اختلبها العبير الخافت من باقات التمني، حاولت التدقيق في لون جناحيها الصغيرين لكنها لم تساعدني بحركتها الدائمة في الظل الذي اربكها كما يبدو، وضيّق عليها تنفس الهواء الصباحي العليل البارد بعد انسحاب المطر، ولم يسعفني الوقت حيث اضطربت أجنحتها حين رأت الحيطان حولها

وحولي، ثم لم تلبث أن انقلبت عن سعيها الحسيس نحو جسدي النحيل وغادرتني كما غادرت الغرفة حتى انتهاء الخريف الذي تهرب منه كما يبدو، وستبحث حتما عن ربيعها في مكان آخر لا يتلون بالملل والثبات. وبينما لم استفق من سكر رحيلها فاجئني أحدهم بسلام جهوري الصوت

: السلام عليكم يا أستاذ عبد الحميد

فالتفت إليه لأشاهد – عبد الباقي - يقف عند حافة الباب من خلفي ببذلته الواسعة كجلباب منزلي في صباح العيد، ولم يكن يحمل في يده صينية شاي كالتي يحملها قرنائه في أفلام سينما الأزمنة الغابرة.

: السلام عليكم يا عم عبد الباقي، ما أحوالك ؟

أجابني ببساطة ودون اعتناء للتفصيل، أو الدخول في مناقشات لا طائل منها

: نحمد الله، بخير وأنت ما أخبارك ؟

فأجبته بتلقائية، ودون اكتراث لسؤاله

: بخير الحمد لله، أين حامد ؟

قال ببلادة الصباح المعششة بقايا النوم في جنباتها

: أنت لم تدر؟ إنه في الدور العلوي هو والأستاذ – فاخر – زميلكم في المكتب، بالأمس قد عقد قرانه، وفي الأعلى يقوم بتوزيع دعاوي حضور حفل الزفاف، كيف لا تعلم وأنتم زملاء في مكتب واحد ؟

كانت بلهجته الريفية التي لم يزل يحتفظ بها، رغم مغادرة والده لمحافظة الغربية منذ سنوات حين كان يبلغ عبد الباقي وقتها أثنتا عشر عاما كما يؤكد لنا حين نسأله عن سر نبرته، ولم تفاجئني إجابته كما كان يتوقع في سؤاله، فنادرا ما أعرف شيئا عن حياة الآخرين، وعلى وجه الخصوص حامد، فهو يحسبني حسودا لعينا

لأنه يوم تعرف إلى في العمل – وهو أصغر مني بتسع أعوام تقريبا – لم يلحق بالحافلة التي ستقله إلى المنزل، وبقي ساعتين في المواصلات العامة التي تنقله إلى المنزل في الأوقات العادية في نحو – ساعة – على أقصي تقدير كما يزعم، وأمام منزلهم صدمته سيارة فسقط، لكن حرسه الله، وجنبه الإصابة بكسور لم تمنعه عن اتهامي بأني – وش فقر -، ومن يومها وهو يتجنب مشاركتي أخباره، خاصة السعيدة منها

: لا تهتم يا عم عبد الباقي، الحياة فيها الكثير والكثير من المفاجئات، يا رجل أنت قد بلغت من الخبرة ما يغنيك عن حكمتي المتواضعة، فليبارك له الله في فرحه، وليتمم سعادته على خير بأذن الله

بدي عبد الباقي متفاعلا مع حديثي ومشدودا إلى حيث يعجبه نطقي المميز للأحرف واضحة، واستخدام الكلمات المعبرة دوما، وكانت لعيناه الواسعتان نظرة بلهاء كرجل فاته قطار المساء فبات للصباح التالي يقظا ليلحق بالحياة، وابتسامته دوما حاضرة بسذاجة قلة الحيلة ولنبرة صوته حدة تشبه انكسار ضيق اليد، هو ساعِ الطابق الذي نحن الموظفين نحتله نهارا ونفارقه بعد انتصاف النهار بساعتين أو ثلاث على أقصي تقدير، فعقب بعد انتهائي متأثرا

: والله أنت رجل مهذب، لو كان مكانك شخص آخر لقال فيه زميله ما لا يمكن تصديقه، أو تصوره إلا في العقول المريضة والقلوب الفاسدة

عبد القادر في الواقع هو رجل كبير في السن وبشوش الطلة رغما عن بدنه ضخم الهيئة الذى قد يجعلك تهابه في البداية، لكن ما إن تتعرف إليه حتى تسحب كل هواجسك الخاصة بالعراك، فهو رجل لا يحب العراك حتى في أيام شبابه الغابرة، لكنه ليس طيبا تماما، فكانت خصلة نقل الكلام متأصلة فيه كآفة تمكنت من الزرع حتى ذهب بخضاره ونهت على حياته، ولهذا فأنا لا اعتاد الشكوى له أبدا، كما لا أعتاد الشكوى لأحد هنا، ليس حرصا مبالغا فيه منّي،

لكن بسبب العصافير التي تنقل الأخبار بسرعة، وبمهارة أرنب بري يقفز بين الحفر، تجاهلت الرد على ما قاله، وقد لاحظ فاستشعر بعض حرج وأضاف على استحياء، أو واجما لست أعرف تماما

: هل تريد منّي خدمة ؟

وهي العبارة التي يمكن ترجمتها حرفيا بكل سهولة إلى " سأذهب الآن لأنني لست أطيق حديثك يا لعين " وكنت آسفا لأنني لم ألبي رغبة النميمة المشتعلة دوما لديه، وتراجعت عن الأسف وقلت " أنا سخيف، فليذهب الرجل إلى الجحيم لكن لن أخالف مبادئ" فأجبت على الفور

: لا أبدا، تسلم

لكنه لم يذهب، بل تحرك ناحيتي وهمس في أذني

: لقد سمعتهم يتحدثون عنك، أنهم يدبرون لك أمرا فاحذر

وما إن نطق حتى تحركت أقدامه ورحل عني، وبقيت وحدي في الحجرة مع الحيرة والقلق لكني لم أهتم كثيرا، جلست إلى مكتبي الخشبي، وجلست على كرسي معدني لأن الآخر الخشبي قد تهشم وانكسر تماما بأحدهم وهو يحاول – متطوعا – أن يمسح الغبار عن ريش مروحة السقف، كان هذا منذ أكثر من سبعة أشهر حسبما أتذكر، ولم يبدلوني بواحد آخر خشبي لأنهم لم يجدوا سوى هذا اللعين الذي يحتويني قهرا ووجعا، نظرت إلى الأوراق أمامي التي بدت غريبة عنّي بشكل يثير الريبة، قلبت الأوراق قليلا ثم أرحت بدني وحاولت عبسا طقطقة فقراتي، وبعدها نظرت تمايلت بجسدي إلى الخلف ونظرت بطرف عيني إلى السماء المكسية بالغيوم التي عادت لتتراس بانتظام، تحبس شمس النهار خلفها ويتكاثف فوقها بخار الماء لتعد بمزيد من البلل، وحين تمكنت البرودة مني، وبلغت من الارتجاف البارد مبلغا كبيرا سألت نفسي متعجبا

: من اللعين الذي قام بفتح هذه النافذة ؟

وبالطبع لا من إجابة تنتظرني، أو أنتظرها

مضت بقية ساعات العمل بلا منغصات، أو عمل حقيقي يذكر، فقط بعض المهام المكتبية وغيرها، ولا إبداع يُذكر، بادر حامد بقول أنه قد أتم عقد قرانه بالأمس، وقام بدعوتي للعرس بفتور مزري، حتى كدت أبصق عليه من فرط احتقاري، لم تشغلني فكرة العرس مطلقا، فأنا عادة لا أحضر تلك المناسبات إلا في إطار العائلة، أو الأصدقاء القدامى الذين تخلوا عنّي واحدا واحدا منذ سنوات، فمنهم من مضي دون سلام، ومنهم من قلت احاديثه تدريجيا حتى أمتنع، ولهذا لم أعد أبالي مطلقا، وبعد انتهاء الدوام صادفت فاخر عند محطة الحافلة وقد رحل حامد باكرا عنّا بساعة كاملة قائلا بالحرف

" تلزمني بعض التجهيزات للعرس، عندي ألف تفصيله تشغل رأسي " ومال ناحية فاخر وقال " أنت تعرف هذه الأمور طبعا " وكانت إهانة مختصرة لشخصي أنا " أعزب الشركة " وكأنهم لا يشغلهم سوى أمري، أو هكذا يبدو في غرفة مكاتبنا على الأقل. حين شاهدني فاخر أقف جواره بادر بسؤالي بودّ لم يستخدمه معي قط في وقت العمل !

: كيف حالك يا صديق ؟ هل أنت ذاهب إلى المنزل ؟

لو صدقت القول فهو سؤال ساذج، لكن في بعض الأحيان ومن أشخاص يتمتعون بقدر كبير من السخافة قد يبدو لطيفا وودودا بشكل ما، أجبته دون اكتراث وانا أتظاهر بالانشغال في تهذيب هيئتي، ناظرا ناحية طريق قدوم الحافلة

: أنا بخير، وأنت كيف حالك، وحال أولادك ؟

صدمت عندما سكت قليلا فعادته أن يسترسل في الحديث حين يبدأه، فينطلق كماكينة قذف كلمات بسرعة رهيبة، وبقدر هائل من

المترادفات في جملة واحدة، اقلقني صمته فارتدت ببصري ناحيته لأجد الإرهاق قد حل عليه فجأة، والهم يعشش بين جفنيه فأصابه بأرق سكن عقله واهلك نفسه، يبدو أنه عليل، أو تمكن البرد منه فجعله سقيما لا نشاط فيه، وبدي لي غريبا – ولأول مرة ربما ودون مبالغة – عن الشخص الذي لطالما كنت أعرفه فسألته مرة أخرى عن قصد وإصرار هذه المرة، ودون تكلف

: مالك، هل أنت مريض ؟

نظر إلى عيناي مباشرة بعينيه الضيقتين الباهتتين، وبدي مرهفا لأول مرة، وربما أضفت شعيرات لحيته المهذبة بعناية في ترسيم صورة ملائمة له، لا تتناسب والوحل في الأرض، خاصة وأن رجل خلفه كان ينزح المياه من أمام دكانه الضيق كجحر، وهناك جرذ صغير يركض كأفعى فوق الطين في طريق منحني ناحية البالوعة التي سيصدم عندما يدرك أنها مغلقة كصدمة عائد من السفر بانهيار عقاره، دام صمت فاخر لدقيقة دون أن ينطق، حاولت عيناه عبسا إخباري بما يُخفي ويحبس أسفل ضلعيه، ثم نطق خائر القوي بعد أن بدي لي أنه تناسي سيقول، أو تجاهله تماما

: لا شيء، أنا بخير، فقط قلق بسبب تلك الأوحال التي ستجعل الطرقات أشبه ببركة مياه كئيبة، تتعطل فيها طوابير السيارات المحملة بأطنان من الآمال المرجئة لحين زوال الوحل

اعتبرت حديثه تافها، أو ارتجاليا لقتل الوقت دون هدف ولا هوية، لكن أمعنت الفكر فيما تحمله الكلمات في كيانها، وما تخفيه من أسرار أسفل أسطرها بكبرياء، والحقيقة أنه فيما سبق ما كنت أحسبه قادرا على صياغة جملة تحتمل التأويل، لما يلقيه يوميا من مئات المترادفات لمعني واحد يدور حوله تعبا ولا يصيبه مباشرة، وفيما يبدو أن القدر قد تفنن في تلقيني درس جديد في الفهم، لاحتقار توصيفي وتقديري للبشر وما اعتقد فيهم على غير الحقيقة، نطقت له مخفيا ريبتي

: لعل المطر يغسلنا يا صديقي، (ثم أشرت للوحل) وهذه هي بقايا خطايانا

ابتسم بهدوء وما كاد يفعل، ثم عاود النظر ناحية قدوم الحافلة وهمهم بشيء لم أسمعه، ثم بادر بعد دقيقة يفتح الحديث مرة أخرى عندما ركدت مياهه وكادت تنضب

: الأولاد أتعبوني، أتعبوني يا عبد الحميد، ابنى الصغير .. وليد، مريض جدا وقد نقلته زوجتي إلى المشفى، بينما أنا هنا طوال النهار لا أعرف شيئا، أخبرتني بالخبر عبر الهاتف منذ ربع ساعة وأنا لا زلت أنتظر أن تأتِ الحافلة، لست أعرف طريقا أقصر للمستشفى ويبدو أني سأنتظر طويلا

ثم أشار للعربات المكدسات في نهاية الطريق، وبعض العمال الذين باشروا بنزح المياه، وإزالة الوحل منذ صلاة العصر ولم يفلحوا في الانتهاء. بدي لي فاخر متوترا ومرهقا للغاية، ولده الصغير في المشفى ولن يصل إليه قريبا، حاولت أن أظهر أنني قد حزنت للخبر، أو تأثرت بشكل ما، لكن لم أفلح ولم تسعفني قسمات وجهي الصمّاء، فقد غادرتني التعبيرات منذ خسرت آخر معركة حب خضتها قبل سنوات، ومن بعدها بدأت علاقتي بالنحيب الأخرس. بحثت عن كلمة مناسبة حتى أهوّن عليه وقلت فقط

: ربنا يستر، ستصل له قريبا وستطمئن عليه بإذن الله

كنت سأسأل عمّا بالولد من مرض لكن لم أقدر، فقد استحيت السؤال، ومن ثم عاد الصمت مرة أخرى لدقائق كنت أراقب فيها قسمات وجهه المنتحبة، وقلبه الملتاع من الشوق لحبيبه الذي ذهب بعقله، فكل مرحلة ولنا حبيب، ومن تراه أحبّ لنا نحن البشر من أولادنا ؟، وأنا رغم تأثري وحزني لست أعرف ما شعوره حقا، فعلاوة على سخطي تجاه الطريق المزدحم إلى العدم، والوحل الفاصل بين أب وأبنه بلا قلب، فسخطي الأكبر هو أنني وحيد، فبعدما كانت ميزة

تقيني القلق والتوتر، انقلبت ورما يأكل قلبي لأني لن أجرب هذا النوع من الحب أبدا، حب أب لأبنه، وما عزائي إلا فداحة خساراتي العاطفية التي أفقدتني كل عزيز، أخذ فاخر يتمتم بالشتائم للسيارات، ولكل شيء يعتقد أنه يعرقله، ثم نظر ناحيتي كأنه تذكر أمرا خطيرا وقال

: هل تعرف لقد سمعت شيئا غريبا اليوم

: ما هذا ؟

نظر ناحيتي وقال باهتمام

: لقد سمعت الحارس يتحدث عن محاولة اقتحام للشركة قد حدثت منذ أسبوع لكنهم لم يبلغوا

لم أسمع شيئا حول الأمر وظننتها مزحة معتادة منه لكني قلت

: ولماذا لم يبلغوا ؟

: لا أعرف، سمعت حتى أن أحد الجيران في المنطقة شاهد الفاعل، قال أنه رجل طويل القامة وله شعر أشقر طويل، عرفت أيضا أنه قد ترك رسالة تهديد في مكتب أحد الموظفين

سألت فقط لأشبع فضولي

: ومن هذا ؟

: حاتم، لكن اللعين يخفي الأمر

نظر ناحيتي وسكت لفترة حتى وصلت الحافلة بعد ربع ساعة إضافية، عندما ابصرها كانت تبعد عنه قرابة عشرين مترا، وقد جري ناحيتها وهو يشاور لي بالرحيل، فأشرت له فرحا لفرحه وهمست بداخلي " وفقك الله "، وبعدها جلست وحدي بالمحطة على مقعد بلاستيكي مترب بعناية، جواره شبيهان له قد دمرهما خراب

البشر عديمي الأهل والأهلية، وكان المقعد مبللا قليلا فقمت بعد أن خفت على بناطلي وطفقت أبحث عن منديل ينزوي بجيبي في جهل مني فلم أجد له أثرا يذكر ولم يصبني الأمر بخيبة تذكر. وقفت هناك كعمود إنارة لا بريق له انتظر وانتظر، وحيد ليس معي سوى خساراتي ووحدتي، ونظرت للسماء مرة أخرى كأنما أنتظر منها خبرا، أو بحثا عن طائرا حرا يفك أثر الفرح الحبيس. ثم صدح الهاتف بصوت الموسيقي الحزينة كأنها مطربة أوجعها النحيب، وقفز رقم أمي لعيناي وربما تمنيت رقما آخر لا أعرفه، لفتاة لم يعد يربطني بها سوى خيط من الذاكرة يضرب في أعماقي. أجبت وأنا بداخلي أتمني أن تكون المكاملة روتينية الطابع

: مرحبا يا أمي

فعاد لي صوتها

: مرحبا يا عبد الحميد، هل ستتأخر اليوم ؟

تسألني وكأن من عادتي أن أتأخر كل يوم !.

: لا يا أمي، خير ؟

وفي تلك الأثناء عبر أمامي رجل سمين في بالطو زيتي كئيب، يقرأ الجريدة بصوت مسموع كأنه تعلّم القراءة للتو !. فسمعت صوتها كحفيف الأوراق عبر الهاتف، ولم أستبن الكلمات تماما فأجبت بغيظ

: ماذا قلتِ ؟ لم أسمع جيدا ؟

فأجابت هذه المرة بصوت أشد لم يصلني منه إلا ما يكفي لاستيضاح اللبث في الفهم

: أخوك وزوجته من الممكن أن يزورونا اليوم على الغداء، لقد طلبت منهم المجيء بالأمس، ألم يحادثك عادل اليوم ليؤكد عليك ؟

سمعت صوت طقطقة يشبه الطرق بأصبع فوق سطح معدني ولم أعرف مصدره، نظرت لأعلى فوجدت السماء تصب علينا الماء صبا، ويحجبني عنه سقف بلاستيكي متهالك تحول لونه إلى طين يتساقط قطرات عبر نهاية حوابه الأمامية المائلة، فأجبت أمي متعجبا

: حادثيه على هاتفه وستعرفين؟

ملاحظتي كانت سخيفة لدرجة أنها أصابتها على الجانب الآخر من المكاملة بخيبة أمل حادة في ذكائي الذي تأكدت ربما أنه حقا محدود بشكل نادر كدب الباندا المهدد، فأجابتني بنبرة صوتها الحاد الذي يصيبني بقشعريرة في جهازي العصبي، وينفذ عبر أذني فيؤذيها

: بالطبع حادثته عبر الهاتف يا عبد الحميد، لكن هاتفه مغلقا، أنا أخشى عليه أن يخرج في هذا المطر الشديد، السماء تسقط علينا المياه بعنف وغضب، والأولاد أيضا أخشى عليهم كثيرا من البرد، كريم لديه حساسية على صدره يا عبد الحميد أنت تعرف هذا ؟

بالتأكيد أعرف، وأيضا بالتأكيد سأتحمل لغوها في أشياء لا ينبغي قولها عبر الهاتف، لكنها أمي بعد كل شيء ومن واجبي أن أسمعها وأن أتظاهر بالإنصات والأهتمام الشديدين لكل التفاصيل التي سألقيها في أقرب بالوعة نسيان أقابلها في عقلي المزدحم بالضباب.

كريم هو أبن أخي وهو ولد طيب، وربما لهذا هو مريض بالحساسية ومهدد دوما منها، ولا أعرف ما سر الإرتباط الوثيق بين الأشخاص الطيبون والأمراض الدائمة، فكم من مرة قابلت شخصا سمينا، ولديه خفة ظل لا يمتلكها إسماعيل ياسين نفسه، وفي النهاية تجده مصاب بداء السكري!

: أعرف يا أمي

ألحّت على بالسؤال مرة أخرى، وهي عادة متأصلة فيها كأنما تتوقع أو على الأغلب تتمنى جوابا آخر، أو ربما هي مجرد عادة فشلت في تفسيرها عبر السنوات

: إذن لم يحادثك عبر الهاتف

عاد صوت الرجل السمين جواري لكن هذه المرة وهو يسعل بشدة، وبعدها بصق على الأرضية وقال بصوت عال كمذياع لا يأبه للبشر " اللعنة على السجائر " وفي الحقيقة أنني لم أشاهده يدخن، لكنني خشيت أن يكون معتوها فوحدهم يمضون عبر الشوارع ببلادة، ويكلمون أنفسهم كأنهم أشخاص آخرون، لكن الصفة المتأصلة في الرجل، والتي جعلتني أنحّي فكرة الهذيان المرضى عن بالي، هو أنه شيخ أصلع وحليق الذقن، والمعتوهين دوما لديهم شعر كثيف مختلط بالأتربة التي ينامون عليها، وذقن طويلة يحكها باستمرار وهو يلعق أسنانه بارتجاف. تذكرت أنني نسيت المكاملة وأنا رجل لا يحافظ على تركيزه كثيرا، فعدت وقلت لها

: لم يحادثني اليوم، وهل تتوقعين أن يزورنا اليوم ؟هل شاهدت الأمطار يا أمي، أعتقد أنه سيلتزم بيته لأنه لن يخرج دون الأولاد، وسيخاف عليهم من البرد

أجابتني ناقمة على المطر الذي أحال بينها وبين ولدها، وقبله أحفادها المحببين

: يبدو أن الطقس يعاندني، وحتي لو فكّر بالمجيئ فستمنعه فوزية ببساطة، حسنا، فلترجع أنت بالسلامة أولا.

ثم أنهت المحادثة بسرعة لا تناسب مزاجها المتعكر، وعدت أنا للوقوف وحيدا أسفل المطر بدون بلل، أفكر في سبب واحد يجعلني أرغب حقا في العودة للمنزل باكرا ولم أجد، ثم نظرت لإختياراتي فوجدتها منعدمة بما يعد بمزيد من الملل القاتل، فلو أحصيت تفاصيل حياتي منذ أشهر لوجدتها نفسها، منعدمة الإبتكار والمتعة، نظرت

إلى الرجل صاحب الجريدة مرة أخرى فوجدته جالسا على المقعد المبتل الذي تركت قبل قليل، يحادث نفسه بصوت خافت لا استوضح منه شيئا، ثم انتبه لوقوفي جواره ووجه لي نظرة مفادها " إلى ماذا تنظر يا أحمق " لن أخبره أن المقعد مبتل وإلا سأكون سخيفا، فلو كان يعرف وجلس فهو لا يبال للبلل بقدر ما يهتم لإراحة قدميه القصيرتين المتعبتين، ولو لم يكن يعرف فلن أنغص عليه لحظة استكانته الهادئة، فككركدن اتعبه الصيد يرتاح صاحبنا بلا صوت هذه المرة، واضعا الجريدة فوق قدميه المغروستان في مركوب جلدي متهتك، تبرز منه أصابع الرجل بحرية تامة ودون مبالاة تذكر لما أصابها من سواد بدّل طبقة جلد الرجل ناصع البياض، والجلي في صلعته اللامعة وسط رأسه والمحاطة بأسوار بيضاوية غير مكتملة من الشعر الأبيض، ثم نظرت مرة أخرى إلى الطريق حذرا ويقظا حيث أتوقع مجي الحافلة في اللحظة التي سأغفل فيها عن المراقبة لتعبرني ببطء لا أدركه يصيبني بغيظ قاتل، لم أكافح كثيرا لأشاهد طفل في قرابة الثانية عشر من العمر يرتدي سروال قماشي كثيف الغزل، هو على الجانب الآخر من الشارع يعبر فوق الأرصفة بدراجة هوائية تمضي سرعة خاطفة، كأنما يطارد طيفا لا يراه غيره، أو يسابق وقتا ما عاد يهم أحد أن يدركه، أو حتى يتلمس طريقه ومسعاه، وبينما أبتسم منتشي بجرأة الولد الذي سيغرقه المطر بعد قليل، ومستمتع بوقوفي أسفل الحائل البلاستيكي الذي سيقيننني البلل، إذ بكيس بلاستيكي ملأه الماء عن آخره يصطدم بجانب وجهى، كافحت كي لا أسقط على الأرض، ولسعني برد الماء كأنما أنا غريق على الشاطئ، وسمعت صوت طفولي يقهقه وعندما التفت بسرعة لمحت طفلا يركض بعيدا، ويضحك منتشي بفعلته التي نجي من عقابها، فلو وقع في يدي لأبكيته الآن، لكن هو من جعل كل من شاهد الموقف من مارة الطريق يضحك، حتى تلك العجوز التي يلتف رأسها بشال من ألوان متضاربة جعلتها كبهلوان في أرذل العمر ظلت تضحك كأنها سمعت دعابة، والمرآة التي تحمل حقيبة خضراوات بكلتا يديها لتمزق مقبض حمل الحقيبة، فتنجو حبّات

البطاطس من السقوط منها بصورة يعجز العقل عن تقبلها، حتى هي كانت تضحك، أزعجتني ضحكاتهم المكتومة التي سمعتها، لكن بعدها لم اعرهم اهتماما يذكر كأنما صعدت من حوض السباحة توا مزهوا بانتصار.

مضت ساعة كاملة قبل أن أصل إلى شارعنا – شارع منصور الغريب – وهو شارع يقع في منطقة حدائق الزيتون، يبعد عن محطة قطار الأنفاق قرابة عشرين دقيقة مشيا، لكن أنا لا اصله بالقطار، فمقر عملي تفصله عن أقرب محطة ركوبة سيارة نقل جماعي – ميكروباص – تكلفني جنيهان صحيحان، ناهيك عن تأخر الوصول وقلة أعداد العربات، ولهذا فقد اعتدت أن أستقل الحافلة الحمراء كما يطلق عليها الموظفون، وهي حافلة هيئة النقل العام الضخمة التي لا تضغط على جيب الموظف بقدر ما تضغط على أعصابه، وأنا آخذ بحكمة السيد – فخري – مديري في العمل " كل قرش له قيمة، فلا تفرط فيه بسهولة، عامله كأنه حبيبتك التي لا غنى عنها، أو ولدك المحبب " وفخري يقبض في الشهر الواحد ما يساوي ضعف راتبي تقريبا، لكنه أحرص مني على المال، فمنذ وصولي إلى العمل لم أجده يتناول الإفطار إلا عن طريق شطائر الجبن المعدة في المنزل، إضافة إلى حيازته على غلاية مياه يضعها في حقيبته السوداء الضخمة، وكل هذا حتى لا يدفع للساعي مليما واحدا.

توقعت أن تنتظرني بشارعنا بركة من المياه ستجعلني اشمّر عن قدماي حتى لا يغوص السروال فيها، وصدمت عندما وجدت – خليفة – صاحب دكان العلافة في شارعنا يمسك بممسحة وينزح الماء بنفسه وهو يشمر جلبابه الرمادي حتى أسفل ركبتيه بقليل، ويقول لعم – حلمي –

: شد حيلك يا حلمي، هل عجّزت يا رجل

وخليفة صديق وفي لعم حلمي منذ فتح دكانه هنا قبل ثلاثين عاما على الأقل، فربطتهما صداقة متينة خلال ربع قرن من الزمان لم

يخنها أحدهما، ويعتدان المزاح بصوت عال يحبه كل فرد يقطن شارعنا، فأجابه عم حلمي

: أنت تعجّز، أما أنا فلا، لقد تربيت على السمن البلدي، عندما كنت أنت تلعب مع الأطفال في الشارع لتسابق عربة الرش

كنت أشتري قطعة حلوى من دكان – سعدية – هذا الدكان الصغير، وقد أخذت النقود مني ودلفت متجرها بحثا عن – الفكة – منذ ثوان، وعلى الأغلب سيتعذر عليها البحث بسرعة بسبب نظرها الضعيف، ولكنها ستظل تبحث بمفردها دون أن تطلب المساعدة من أحد لأنها تخشى على مالها كيهودي يتاجر في العملة، وكنت ملتفتا للشارع، مبتهجا بالشيخين الكبيران، متلمسا طريقا أدلف به إلى حديثهما الممتع، وفي نفس الوقت قلقلا من التدخل في الحديث فيصبح ثقيل الظل مثلي، فهذه المرة تذكرت ما تحذرني أمي منه دوما " لا تتدخل في المزاح حتى لا تفسده " وأعتقد أنها تعبرني ثقيل الظل رغم توسلاتي لها بأن تتنازل عن فكرتها تلك، عاود خليفة قائلا

: هل أكلت السمن البلدي وحدك يا رجل، أنا تربيت على العز وأكل الوز، أنا من الصعيد والصعايدة كلهم خير، وأنت من المنوفية يا رجل، فلا تتحدث كثيرا

قصد خليفة أن يكسب الحوار، فأهل المنوفية يتسمون دوما بالحرص كما يحب لهم القول، أو البخل كما يطيب للآخرين القول، فسخر حلمي قاصدا استفزاز خليفة، فخليفة أصله من قنا، ودمهم فائر كأصل النيل

: - اللي يجي من الصعايدة فايدة -

وعم – حلمي – هو موظف الأرشيف في شركة لم يسمع عنها أحد، لكنها يصر على أنها شركة حقيقية وموجودة رغم سخرية – سليم – صاحب المقهى دائما منه قائلا " ربما تضحك علينا يا رجل وفي النهاية سنعرف أنك الشيخ الذي يبخر محلات مصر القديمة في

الصباح " وهي سخرية يمقتها حلمي لكنه يتجاوز عنها لأنه يعرف جيدا أن سليم لا يقصد بها إهانته تماما بقدر ما يقصد الترويح عنهم بدعاباته التي تطال القاصي والداني بلا امتعاض، ولو أظهر حلمي امتعاضه لتهمه الجميع بأنه " يجعل من الحبة قبة " ، وحلمي أيضا هو زوج عفاف الخاطبة ويساعد – خليفة – بنشاط نزح المياه المفاجئة، ويقومان بالأمر بجدية تامة، وهم يغنيان معا " الف ليلة وليلة " ويتضاحكان دون انقطاع، ولم يشارك الأولاد في نزح المياه، فلم أبصر منهم واحدا، مما استفز – سعيد – العامل السابق في مصنع المشروبات الغازية، وهو رجل قارب السبعين عاما ويقطن في الدور الثالث بشقة في عمارة – الحاج عثمان – صاحب المخبز، ودائما ما تراه مع حفيده من ابنته الوحيدة – فاتن – في شرفة الشقة، يداعبه أو يلعب معه بالمكعبات البلاستيكية في أغلب أيام الأسبوع ما عدا يوم الثلاثاء الذي يتغيب فيه عن الظهور بشكل يعجز أحدا عن تفسيره. والآن يقف في الشرفة لكن بمفرده، يحتسى كوبا من الشاي وقد سمعته يعقب عندما أبصر – فتحي – ابن عم – سمير- الحلاق وهو يتحرك بسرعة في المياه ليدرك منزله

: الرجال الكبار يقومون بنزح المياه في شارعنا يا أولاد، يا لخيبتنا الكبيرة، أين الشباب الجدعان، فلو في زماننا شيخ أمسك بممسحة وشاب موجود، لأمسك عنه فعلته وقام بها عنه فخورا ومبتسما، وصلنا آخر الدنيا يا خلق

تجاهله الولد ومضى في طريقه، ولو شاهد عم سمير الفعلة لغضب من الرجل، لكنه لن يتصادم معه فهو أكبر من بالشارع سنا، والكل يحترمه رغم لسانه السليط كما يقول البعض، أما أنا فاعتبرها صراحة مطلقة منه، وحتى لو أوجعت كلماته البعض بقصد أو دون قصد، فقد قال مرة حكمة أحفظها عنه كأنه فيلسوف عتيق الطراز " الكلام الموزون وقعه على النفس أشد من الضرب على الجسد ". ثم عقّب عم حلمي ليخفف من حدة الحديث

: لسنا كبار يا عم سعيد، نحن شباب، هل تعتقد أن شعري أبيض من فعل العمر !، لقد صبغته فقط خوفا من الحسد

أقسم أن كل من سمع الدعابة قد ضحك حتى كاد يسقط على بطنه، حتى عم خليفة ظل يضحك حتى سعل بشدة وأحمرّ لون جلده شديد البياض وصاح في حلمي بصوت مبحوح

: دعاباتك قاتلة يا رجل

فمع عمره الذي تجاوز الخمسين بثلاث خطوات كاملات، يبقي عم حلمي رجل مهذار، تُسمع ضحكاته واضحة جلية، وهو يلعب الدومينو مع – سيد – خادم زاوية – عمار بن ياسر – في سهرتي الخميس والجمعة اللتين يحافظ عليهما كعادة مقدسة لكليهما، ولكثير من أصدقائهم في الشارع، فالسهرتان احتفالية طاعنة في السن لشيوخ الشارع على مقهى سليم القديم الطراز، وكواجب تنافسي لا يجب التقاعس عنه.

ومقهى سليم في الواقع أشبه بمغارة حيث يتكون من دور أرضي لعمارة – الصفاء – التي يمتلكها أيضا سليم، والمكان غائر للداخل مع أعمدة ضخمة صلبة من الرخام الشديد المصقول، وكافة الكراس خشبية قديمة تذكرك بأفراح أفلام فريد شوقي، والطاولات أيضا خشبية واسعة الرقة ثابتة الأساس، تشتم هناك رائحة أدخنة – الشيشة – القديمة الخالية من الأطعمة والمكملات الطفولية، ويسمع دائما لعم سيد سعال عميق يخرج من الجوف مباشرة مصحوبا لكركرة مياه الشيشة ومختتما العملية ببصاق متكرر. عندما انتهت سعدية من عملية بحثها المضنية عن الفكة، عادت لي بخطواتها البطيئة، ونظرت لوجهي تماما عبر نظارتها ضخمة الإطار المعدني وكبيرة العدسات، فكما تقول أمي " سعدية لا تثق بالعدسات الصغيرة ولا بالإطارات البلاستيكية المرنة " وظلت سعدية تعد الباقي بروية خاصة وأن عدد الجنيهات المعدنية الأشبه بدنانير الجاهلية قد تجاوز تسع جنيهات، وهي تصدر رنينا مكتوما، وبريقا خافتا لا يمكن الثقة

فيه حيث قد يصيبك بخطأ في الحساب لا يمكن معرفة مصدره تحديدا، ثم بعد أن عدّت الباقي ثلاثا، أعطتني الباقي وهي تبتسم مظهرة أسنانها الصفراء قائلة

: أعذرني فنظري ضعيف واحتاج للتأكد أكثر من مرة

ثم دققت النظر فيّ أكثر قبل أن تضيف

: هل أنت ابن سعاد ؟

في الغالب يذكرني الناس باسم والدي الحاج عبد العليم رحمه الله، موظف الأرشيف في نفس الشركة التي أعمل فيها الآن والسبب الرئيسي – بعد الله طبعا- في الحصول على الوظيفة دائمة الراتب والملل، لكن السيدات يذكرن الأولاد على الأغلب بنسبتهم لأمهاتهم، والحاجة سعدية التي شارفت على السبعين من العمر بمنتهي الثقة وبخطوات كبيرة تذكر والدتي الستينية كما يبدو، جعلني الأمر أشك في موضوع الزهايمر الذي يدعي أولادها مرضها به، أجبتها مبتسما ببلادة ابن ينتسب لأمه وهو في السابعة والثلاثين من العمر !

: نعم أنا، إنها تسلم عليك

وطبعا – تسلم عليك – كانت مني لأنتهي من الذكريات التي ستتلوها الآن بينها وبين أمي، ولأظهر مدى انشغالي عن حديثها المهم!، ظلت سعدية صامتة لثواني حتى ظننتها نست وجودي ثم أعطتني الباقي في يدي تماما، وقالت

: سلّم لي عليها

فبادلتها الابتسامة وقد عددت المال خلفها لنفسي مرة فلو هي لا تثق بأنني سأرجع لها الزائد من المال إن وجد، فكيف أثق أنا بها!. وقد اختمرت فكرة أن أساعد الشيخان في رأسي، وقررت نزح المياه إلى البالوعة العظيمة في منتصف الشارع معهما، والتي ستنسد على نهاية الأسبوع بسبب القدر الزائد عن استيعابها من المياه فكرأس

طالب فاشل لا يتسع عقله لما يزيد عن حاجته من المعلومات التي لا يمكن ترتيبها بسهولة في ظل كساد فكري حاد. ملأت الفكرة رأسي جيئة وذهابا حتى تمشيت ناحية الشيخان بتردد محموم جعلني أعيد حساباتي وأنا افكر في ملابسي التي ستتسخ، وسأقوم بتنظيفها في الغسالة قبل الأوان، ففي العادة لا أبدل ملابسي طوال الأسبوع دون أن أبالي للأذواق المختلفة المتغيرة للبشر على مدار الساعة.

عندما شاهدني عم حلمي أقترب منه ومن المياه التي يقفان فيها، صاح بي

: توقف مكانك يا عبد الحميد، لن تفعل ما تفكر فيه وتساعدنا، لسنا في حاجة إلى المساعدة يا بني فلا تشغل بالك

وكان حلمي يعاملني بود صادق شديد طوال السنوات، وقد زارنا هو وزوجه أكثر من مرة في منزلنا أنا ووالدتي وتناولا الغداء معنا، وأخبرني ساعتها أنني أذكّره بولده – عماد – الذي سافر إلى أوروبا قبل سنوات وانقطعت أخباره، وعلى الأغلب فقد توفي ولده الوحيد غرقا قرب سواحل إيطاليا كما يدّعي البعض، لكن الرجل يقابل تلك الأخبار الغير مؤكدة قائلا " لا يمكنني أن أعقب على تلك الشائعات التافهة" وقد أخبرني ذات مساء عندما طلب مني أن أتناول الشاي معه، وأشاهد معه فيلما قديما جالسين على أريكته الجديدة التي صنعها – عمولة – قبل سنة " لقد راسلني عماد بعد سفره أكثر من مرة، لكني لا أريد إخبار أحد بهذا " وظننته يخدعني يومها أو يخدع نفسه حتى شاهدت الخطابات المزعومة في الأسبوع التالي وتأكّدت بنفسي من وصولها من خلال مكتب البريد، وعلى كل فعلاقته بي جيدة جدا، ورغبته في منعي من مساعدتهم هو صورة من صورة الحب القديم من حيث نشأت أفكاره، وقال خليفة لي

: شمّر عن قدميك يا فتى، وتقدم لمساعدتنا، لا تأخذ على كلام هذا الرجل فهو يظن نفسه في بطولة العالم لنزح المياه لمن هم فوق الستين

استفزت العبارة حلمي فنطق صائحا، لكن محاولا أن يبدو مهذارا

: أنا لم أتجاوز الستين بعد، أنت في الخمسين وتصغرني بقليل يا مخادع

غمز لي عم خليفة بما مفاده أنني نجحت في إغاظته، وقال ساخرا وهو يتابع نزح المياه متظاهرا بعدم المبالاة لجدية حلمي المندفع محموما للدفاع عن شبابه المغادر بلا رجعة منذ أمد

: نعم، أنا أصغر منك بيومين على ما أذكر

ثم ضحك بصوت مرتفع جعل كل من بالشارع يلتفت إلى منبع الصوت وتضاحك حلمي كعادته بشوشا لا مباليا لشيء بقدر كبير، فهو يقول دائما " اضربها جزمة ، فالحياة دوما لا تستحق أن تأخذها على محمل الجد "، شمّرت عن قدماي، وجهّزت نفسي لقدر هائل من الطين الذي سيجعل حذائي يصرخ طلبا للنجدة، كل هذا الوقت كنت أمضي فوق المياه سوداء اللون لكن يبقى تجمع الماء الأكبر عند المنزل الذي يقطن فيه – شحته النجار – ، وعلى الأغلب فهو ليس بالأعلى وإلا لبادر بالعمل دون مناكفة لأحدهم، أو معايرة، ثم وقبل أن أخطي ناحيتهم خطوة أخرى، ربّت أحدهم على كتفي من الخلف كأنما ظهر من العدم فجأة، وهمس بأذني بصوته الرقيق الصادر من أعماقه الهادئة

: مكانك يا أفندي، هذه الأعمال لا تليق بك يا رجل

فالتفت لأجد - مصطفى جعفر – وله قصة طويلة يعرفها شيوخ الحارة، وقصة طويلة لا أحد يعرفها، فدائما لديه ما يدهشك، وهو شاب قصير القامة في منتصف الثلاثينيات، له شعر غالب بياضه سواده، وإن صح القول فلونه الأبيض يميل إلى اللون الفضي اللامع كالفضة، وعينيه بنيتان لامعتان دوما وتتقدان ذكاء غامضا، عظامه شديدة، وبدنه صلب العضلات نظيف الطلة، ولسانه كالعسل الصاف، ألفاظه مهذبة وبعيدة المغزى، فرغم قلة مقداره من التعليم المدرسي

إلا أنه يزن الدنيا برأسه، حين التفت له صافحته دون اهتمام لنظافة يديه التي كانت نظيفة على كل حال، حيّاه الشيخان بصوت عالٍ وابتسما له بشدة، وقال – سعيد – من الأعلى، منشرح القلب لأول مرة

: جاء من سيخلصنا من الماء في غمضة عين

فحيّاه مصطفى بتحيته الخاصة المميزة، التي يعهدها الجميع منه

: صباحك فل يا سيد الكل، صباحك عسل.. حبيبك وصل

في الحقيقة قلّما تبلغ السعادة في قلبي مبلغا، لكن أمام ابتسامة مصطفى الصافية التي لا غرض منها، وحضوره اللامع كنجم لا غبار عليه، تصيبني السعادة في قلبي تماما، وتنسيني دعاباته الحاضرة ما نالني طوال اليوم من غم، أمسك عنّي ما نويته وقال لي بصوت خفيض لا يسمعه سوانا ودواب الأرض المنصتة

: هذه الأعمال لا تليق بك يا عبد الحميد، أنت رجل متعلم ولا يناسبك الطين والبلل، فبالله عليك دعها لي واصعد لمنزلك فوالدتك تنتظر، وبلّغها تحياتي وقبّل لي يدها

: يوصل

اقترب مني في هدوء وقال وهو يربت على كتفي

: أريد الحديث معك في أمر هام

: عن ماذا ؟

قال كلمة واحدة أثارت خوفي

: الأشقر

تركني وذهب إلى عم خليفة الذي دخل فورا إلى دكانه وجلب له ممسحة أخرى ، ناولها له ونظرت أنا خلفي لأجد أمي تراقبني

بعناية، تقف هناك في شرفتنا بنّية الطلاء، تقف مائلة على السور الصلب لتنظر إلينا جميعا وإليّ على وجه الخصوص، شعرها الأبيض كان باهتا، وعيناه الضيقتين تبصران بعمق، وأنفها طويل نسبيا لا نمش فيه. ظلت مبتسمة وأنا ماض ناحيتها، وقد حسبتها تبتسم لي وبالطبع فعلت في البداية، لكن كل ما عنته ابتسامتها من تقدير وعرفان وأيضا صفاء خالص كان لمصطفى جعفر، وقد أدركت هذا فقط عندما حيّته بإشارة من يدها، وكل ما جال بخاطري أثناء صعودي إلى الطابق الرابع حيث أقطن هو كيف كان سيحضر أخي وزوجه إلينا في هذا اليوم الماطر، كيف توقعت والدتي هذا بحق السماء !

وحين وصلت إلى أعلى ضربت الجرس ففتحت لي الباب – ياسمين – ابنة أخي الحسناء، وهي تبتسم مختزلة كل جمال الكون في بسمتها الرقيقة، وشعرها الأصفر المموج، وبالطبع أدركت كيف توقعت والدتي قدومهم في هذا اليوم فوعد أخي كسيف قاطع كما تقول، وتوقعاتي الساخرة الناقمة على كل رأي دوني خابت مرة أخرى أمام منطقها الرباني، ونطقت ياسمين بلدغتها المحببة إلى نفسي، مظهرة أسنانها السليمة المتراصة بعناية واحدة تلو أخرى

: عم عبده وصل، وحشتني جدا يا عبده

ومن خلفها أبصرت أمي عائدة من الشرفة وهي تشير لي ناحية الحمّام، دخلت وأغلقت الباب من خلفي وسمعت صوت أخي من غرفة الصالون حيث نضع التلفاز، الذي وصلني صوته العالي من عند الباب (فأخي محمود يحبه عاليا كصالة السينما كما قال والدي رحمه الله) ولم يكن سمع ياسمين تحييني، ثم عندما دلفت إليه الغرفة وأخبرته بوصولي بصوتها الطفولي العال والفرح على الدوام، والمخالف لصوته الجهوري البشع الذي قال به

: مرحبا يا شيخ العرب، كيف حالك ؟

وفي العادة يقول لي شيخ العرب ساخرا لأنني أطلق لحيتي في أغلب الأوقات، لكنني قد حلقتها بالأمس على سبيل التغيير المفاجئ للجميع، وأنا الآن قريب من الحمّام، فترددت في الذهاب إليه وفي النهاية أشارت لي والدتي بأن أذهب إلى الحمّام فدخلته مرغما وأنا أحيّيه

: مرحب بك يا أخي، دقيقة واحدة وسأكون عندك

الحمّام يقع بجانب غرفة الجلوس وهو ضيق نسبيا ولا يحوي بانيو للأسف، خلال نصف دقيقة تقريبا جلبت لي والدتي منامتي القماشية التي ارتديها في المنزل، وهي شبيهة بتلك التي كان يرتديها والدي في زمان مضى، بدّلت ملابسي وغسلت أطرافي بعناية مستخدما الماء البارد لأن السّخان الكهربائي معطل وقد نسيت كالعادة مكالمة شركة الصيانة، لعنت برودة الجو التي تروقني، فهي تضايقني ككل شيء جميل يعجبني، أو ربما هذا ما يسمونه دلالا أخاذا.

خرجت من الحمّام نظيفا لكن شعري متطايرا لأعلى كأينشتاين، واستقبلتني ياسمين بمنشفة أخرى غير تلك التي يضمها الحمّام، فهي تعرف عادتي السيئة بالخروج مبتلا قليلا، ثم أبحث بعصبية عن منشفة أخرى تريحني من تساقط المياه ومروره فوق أنفي وعيناي، ناولتني المنشفة الزرقاء كلون عينيها الواسعتين الساحرتين وهمست لي

: لا زلت مبتلا، لقد حفظتك يا مشاكس

وياسمين في التاسعة من عمرها، ولو كانت لي صديقة مثلها في الجمال وأكبر في العمر لعشقتها عشقا يعجز عنه قيس العامري، لكنها الدنيا؛ فمنذ متي حصلت على ما أريده تماما، جففت شعري المبتل، ثم احتضنتها وحملتها وأنا لا أكف عن دغدغتها والاستمتاع بصوتها وهي تضحك دون خوف أو تحفظ. وكان أخي منهمكا في مشاهدة الأخبار وهو يأكل السوداني - كقردة جبل العميان - وهذه قصة لا يعرفها غيري أنا ووالدي وربما سأحكها يوما لياسمين دون

سواها، لأنني لم أجد غيرها يستحق حكايات والدي التي أحفظها، ولم أبصر فوزية ولا صديقي الرضيع – عمّار – الطفل الثاني الذي أنجبته فوزية قبل عام تقريبا، وقد أسماه أخي هكذا لأن الأطباء جعلوه يخشى كثيرا على ولده بسبب ضعف نموه، وقد ضعف الرجاء بأخي أن تلد زوجه ولدا صحيحا سليما، فبالنسبة له لم كانت فكرة الولد المشوه أشبه بكابوس يطارده أينما ذهب (وربما هذا الهاجس يطاردني أنا أيضا) وظل أخي يصلي طوال أشهر الحمل حتى جاءته البشري (على حد قوله) عندما زاره جدنا عمّار في المنام، وأهداه عشرة جنيهات كاملات. في الحقيقة لم أعرف إلى الآن تفسيرا لتلك البشرى التي خشيت عليه منها أكثر من الهاجس نفسه، لكن الأمر قد قُضي وجاء عمّار الصغير سليم البدن، وأسماه أخي تيمنا وتبرّكا باسم جدي. قال لي محمود ليستوضح أمرا

: يشاع في الأخبار أن الأمطار الغزيرة قد سدت بعض الطرقات، وجعلت حركة السير مثل كابوس، هل هذا حقيقي ؟

جعلني سؤاله مضطربا، ولم أحاول استبانة فحواه لأنني أعرف أن أسئلته – على الأغلب – ليس لها غرض منطقي محدد، وربما هي روتينية إلى أبعد مدى. جلست على الأريكة المريحة جواره وأجلست ياسمين على قدمي فرحا بابتسامتها اللامعة، وممررا أصابعي الخشنة عبر خصلات شعرها بديع الحسن كليلة حب لا تنتهي أبدا، ثم أجبته بلهجة بطيئة لا أحبذها عادة ولكنني آثرتها لسبب غامض على نفسي (ربما لانشغالي بخصلات ياسمين المبهجة)

: هذا صحيح، كابوس لا يمكن الاستفاقة منه أبدا، أين فوزية وعمّار؟ لم أشاهدهم مذ دخلت ولم أسمع صراخ عمّار المزعج كصوتك المرعب، ألم تجلبهم معك ؟

لم يلتفت لي رأس محمود مطلقا طوال فترة سؤالي له، وبدي منبهرا ومشدودا إلى أقصي حد وهو يتابع المذيعة التلفزيونية؛ ذهبية الشعر -المستعار- دون علمه، زرقاء العينين – العدستين- على الأغلب،

دائمة الابتسامة المائعة، صاحبة البشرة البيضاء التي بدت لي مع إضاءة الغرفة الباهتة أقرب إلى اصفرار الأوراق اليابسة لأشجار قتلها الزيف، وقد انشغل بها إلى حد شعرت معه أنه لم يسمعني، ثم أضاف غير ملتفتا إلى سؤالي

: تقول الأخبار أن هناك شخصان على الأقل قد تسببت الأمطار في وفاتهما، حدث هذا في الصباح كما يقال

نظرت مرة أخرى إلى المذيعة الشبيهة بدمية الأطفال الصمّاء ذات الجمال ناقص الروح، ولم ينقص المذيعة سوى علبة بلاستيكية لتكتمل الصورة في رأسي، وقلت في نفسي " لقد أصبح خبر الموت مثيرا للغاية، فلو سمع الناس أخبار وفاة ذويهم من تلك الشفاه الشهوانية الشبيهة بحبة الكرز، لأشتهي البعض موت أقربائهم " ولم يبد محمود منشغلا بإيجاد إجابة لسؤاله، فكررت عليه سؤالي – غير الملح – عن زوجه وولده، فأجاب دون أن يلتفت

: فوزية في الداخل

إجابته كانت خالية من الإجابة فسألت ياسمين التي عرفت منها أن محمود نائم على سرير غرفتي، وأن والدتها في المطبخ مع جدتها لتجهيز طعام الغداء، وبقية الحوار مع أخي كان خاليا من أدنى فكرة تستحق التأمل أو الذكر، وعندما مضت نصف ساعة دون أن أبصر زوجه تساءلت عن الطعام الذي يجهزانه لنا على الغداء !، كل ما كان يشغلني في تلك اللحظة هو العبث بشعيرات ياسمين لأطول مدة ممكنة، حتى لو مكثت هناك على هذه الأريكة إلى الأبد، وهي بين يداي كروح تتطاير بوزن فراشة فوق جذوري الضاربة في الأرض بلا شعور.

تحلقنا طاولة سفرتنا الضخمة المكتسية بالمفرش الزيتي الداكن المزين بصورة طاووس كئيب ينظر بلا جدوي إلى مكان ما في سقف الغرفة على ما يبدو، وهمست لي ياسمين في أذني قائلة " أن

هذا الطاووس أحول على ما يبدو "، وحين أمعنت النظر فيه تعجبت للغاية، فكيف لم أستبن هذه الملاحظة طوال السنوات التي جلست هنا بالذات أتناول الطعام دون توقف، وحول الطاولة خمسة كراس من أصل ثمانية خشبية من الزان الشديد الملمع بعناية.

ثم نمت الأطباق فوق الطاولة أمامنا بسرعة والدتي وزوج أخي المتقنة لعملها، فهي طويلة القامة حتى قارب طولها أخي محمود ولهذا لم ترتد حذاء ذا كعب عال في يوم الزفاف الأخير في حياة عائلتنا إلى الآن، وضعت أطباق- المعكرونة بالصلصة - التي أحبها، ومن ثم جاءت والدتي بدجاجة مشوية الأجزاء فوق طبق مسطح يعدنا بالمزيد من المتعة. تبادلنا ونحن نأكل حديثا تافها حول مشكلات محمود مع مديره في العمل، وهو يعمل موظفا في الأرشيف في شركة كهرباء أيضا لكن بالقرب من مسكنه، ومديره رجل لا يمكن احتماله – كما يصفه محمود -، وتخيلت للرجل صورة بشعة كأنه عنكبوت يغزل الفخاخ لكل من حوله بعينٍ يتقدا شرارا، وهي صورة سريالية لا يمكن كبحها ولن أحاول حتى، فربما معظم البشر عندي يمكن وصفهم على هذا النحو وبنفس راضية تماما وبلا أدنى شعور بالمبالغة، فأصل الأشياء غالبا على نحو كريه تخفيه المظاهر التي نحبها وتجعلنا أبهي. احتملت شكوى أخي المضجرة، ودعاباته السخيفة مع أمي التي لا تنطق بالكثير أثناء الطعام، وظللت أنا أراقب ياسمين وهي تلهو بحبّات المعكرونة المطبوخة كأنها تبدع لحنا موسيقيا ما في رأسها، ثم صمعت صوت صراخ الرضيع من الغرفة الداخلية معلنا عن استيقاظه المريع من النوم بأبشع أنواع التنبيهات الممكنة – واء – وتمنيت ألا تستكمل وصلة الشكاية إلى ما بعد الطعام وللأسف هذا ما سيحدث غالبا.

بعد ساعتين ظلت فوزية تشكو فيهما مر الشكوى لأمي مما ضايقني، ففي غرفة والداي صوتهما المنخفض يصل إلى مضاربي وأنا أكافح ألا أسمع لكنني وغد تضايقه أصداء الأصوات المكتومة، قد نلت كفايتي منهم جميعا إلا ياسمين، فحتى عمّار الصغير كان يجلس

بالقرب من والده شاردا بعينيه الواسعتين وهو يصرخ بين حين وآخر بهيستيريا طفولية كصوت الطبيعة لا يمكن كبتها أبدا، ثم شرع محمود يقنعني بروعة الزواج، وميزاته العديدة التي لا يعلمها كل شخص أعزب!، ولو سألته هو نفسه عن صدق حديثه لتردد كثيرا قبل أن يرتبك مجيبا " لا تسخر مني "، مع إصراره المتزايد أدركت الحقيقة الجلية، والدتي قد جلبتهم إلى هنا ربما من أجل هذا الحديث المؤجل إلى أول الليل حتى يبدو طبيعيا، ثم خرجت والدتي وفوزية من الداخل ثم شاركوا الحلقة النقاشية حول مستقبلي، وقد اقترحت فوزية الحسناء ناصعة بياض الوجه (وقد رشحتها أمي لمحمود لأنها أبنة خالتي حنان رحمها الله) أن أزورها في منزل أخي الأسبوع المقبل وهي سترتب لي لقاءا مع (سلمي) أبنة الشيخ (سالم) قريبها من ناحية أمها، وأخذت تعدد في محاسن الشابة المجهولة بطريقة كادت تجعلني أختنق، ولست أكره سلمى المجهولة، ولا أعيب فيها حين أقول أنني لست مهتما كثيرا برؤيتها، وهذا ليس طعنا في جمالها أيضا فأنا رجل يقدّر الجمال إلى أقصى مدى، لكن هل فقط سأكتفي بزيجة (صالونات) كما ارتضي أخي، وقلت لهم جميعا بوضوح تام

: متأسف لكن أنا لا أريد الزواج

فوضعت أمي يدها فوق رأسها يأسا، وقد اتضحت ملامح الغضب على وجهي، وأمي خبيرة في فهمي لهذا غيّرت دفة الحوار الفاشل في مهمته الضاغطة، وتجاهل أخي الأمر برمته وقام بتشغيل التلفاز مرة أخرى وهو يقول لأمي

: رأس ولدك صلبة ولا تلين، سأشاهد التلفاز قليلا قبل أن نرحل إلى منزلنا يا فوزية

ولم يفلح في فعلته فقد جذبته فوزية من يديه ورحلت بعد قولته بدقائق متعللة بياسمين الصغيرة التي شعرت بنعاس شديد، وانتهت الليلة بعراك خفيف بيني وبين والدتي، التي نامت غاضبة مني كما يبدو، ومضت الأيام التاليات على حياتي بلا جديد، وكالعادة دون هدف

واضح أسعى إليه، ولا هواية تستهويني ولا فتاة تجتذب انتباهي، فقط فكرة جلب الزهور لوضعها في المكتب تأخذني إلى البعيد، وافتقادي لضوء الشمس في ظل البرد الخافت والمطر الخفيف، وظلت الأشجار تستقبل المياه النقية، والدببة في الغابات البعيدة في الجانب الأقصى من الأرض تغط في ثبات عميق وأنا مثلها، ليس يفرقني عن الموتى سوى الأنفاس المشتملة عليها رئتاي، وما أراه من بغض الحياة وضجيج شوارع القاهرة المزعج، وحيد كقط مسن لا تشغله الحياة بشيء ولا يحرّكه لصيد الغذاء سوى الغريزة القديمة للحياة.

*****

السماء خارج النافذة ليست صافية تماما، لكنها هادئة بصورة مريحة للنفس، تسر الناظرين المتأملين، فربما هناك شاعر الآن يجلس على مقعد خشبي ليكتب بيتا من الشعر وهو يستمتع بالطيور القليلة التي تشق الغيوم رغم البرد، أو هناك رسّام مبدع استيقظ في الصباح مذعورا بكابوس جعل النوم يهرب إلى الأبدية في خوف، ليتيح له فرصة استراق النظر إلى الهدوء والنقاء في السماء المكتسية بالبياض، هو هدوء يعد بالمزيد من البرودة، لكن على الأقل تبدو الأمطار أملا بعيدا للسحب النائمة في الأفق، وقفت أمام المرآة أشاهد ملابسي، رأيت علامات الأرق أسفل عيناي على الرغم من نومي المتواصل على حد قول أمي، فلماذا يظل الجلد أسفل عيني يميل للسواد مثل المدمنين، أنا لا أكاد أصحو في إجازاتي، فمن أين لي بهذا الصداع المستمر وكيف لي أجد نفسي مرهقا دائما كأني لا أرتاح أبدا، ندمت لأنني لم أرتدِ الكنزة الصوفية الزرقاء التي وجدتها موضوعة جوار المنبّه الدائري أزرق اللون، صدري يستنجد الآن أسفل قميصي من الصقيع الجاثم فوقه كعملاق لم يتعلم المشي، في

الصباح لا أكن مستعجلا لكن غائب الوعي بشكل ما، وأمي النائمة لم تكن جاهزة لبدء محاضرتها المهمة في كيفية الوقاية من البرد لشخصي المتواضع الجاهل بتلك الأمور كجهل دب في الحساب، ذلك لأنها تسترق لحظات من الحياة وهي نائمة بكسل واستمتاع يغلبان الجميع في ديسمبر، ولو تخيلت دبّا يرتدي نظارة دائرية العدسات كدمية أسطورية تتحرك وتتكلم، لبدى لك الدب ذكيا بما يكفي ليحل معادلات من الدرجة الثانية ولكن هذا لا يعني أنه حينها سأبرع في الاهتمام بشؤوني الخاصة بشكل كامل، فكلما قلت لنفسي أنني أستطيع العيش لوحدي أجد نفسي كاذبا لعينا بدرجة فاشل جدا، ولهذا فلم أتناول كوب من الشاي الدافئ هذا الصباح، فرغم أنني كنت في حاجة شديدة إليه، إلا أنني رغبت في أعداد قرص من البيض الأصفر اللامع معه، وانتهي بي الحال أن اكتفيت بالنظر إلى أبريق الشاي الضخم (الذي غنت له سعاد حسني قبل سنوات، ومجرد تذكّر هذا يجعل المرء فخورا باقتناء واحدا) وإلي الأكواب النظيفة بفعل أمي المخلصة النائمة الآن، ثم نزلت إلى الشارع مهزوما بفكرة الصورة الكاملة التي أرغب بها، والصورة الناقصة التي سيصبح عليها الحال لو أعددت الشاي واحتسيته مقهورا بفكرة الفشل في أعداد البيض لتكتمل سعادتي الصباحية البسيطة، ولن أوقظ أمي من النوم لتعد لي الإفطار الشهي القاطن في مخيلتي، ليس لأنني فقط عندما أراها نائمة أخشى عليها كثيرا أن تستيقظ دون إرادتها لأنني طفل كبير فاشل، أو لأنني لن أحتمل سخريتها مني التي ستستمر إلى أسبوع كامل (وهذا لا ينفي طيبتها لكن لو وضعت نفسي مكانها لسخرت من ذلك الوغد الفاشل في أعداد البيض) لكن لسبب مجهول بداخلي يتشابك وصورة الأحلام الناقصة، والرغبات غير المحققة التي ينبغي أن تظل معلقة هكذا بين ياقات الأردية الثقيلة، وحول مقابض النوافذ المغلقة، وبينما الطرقات تأخذ الحافلة تارة، وتلقيها تارة، ظلت الذكريات تزورني على استحياء، وتفاصيل العداءات في مكتبي تأخذني إلى جداول خيبات الأمل السائلة، فقد تم عرس صديق مكتبي دون حضوري الكئيب، وجعل الجميع في المكتب ينتظرون

مني خطوة للتهنئة التي أتيتها متأخرا في الساعة الأخيرة في العمل، حيث تجاهل حامد وجودي بشكل أزعجني قبل التهنئة، وبعدها ربت على كتفي قائلا

: الله يبارك فيك

لم أكن حزين، بل بداخلي فرحة له، لكن هناك ضيق بداخلي لست أنكره، وغضاضة في التعامل معهم وهم يحسبونني (على غير الحقيقة) حسودا حاقدا، والحقيقة أنني لست أهتم لزيجة حامد من عدمها فالأمر عندي سيان، بقية ذلك اليوم مر بشكل عجيب فقد شاهدت أوراق بيضاء وقلم حبر في درج مكتبي لكنهم لا يخصوني، وفي نهاية الدوام رأيت حاتم يتمشى مع هادية خارجين من الشركة وهما يتبادلان حديثا وديا بصوت خفيض لكنها بدت سعيدة ومشرقة، وفي الصباح التالي جاءوا معا فيما يبدو، جلس حامد فوق مكتبي وقال بشكل سخيف " اللي سبق أكل النبق "، لم أشعر بنفسي إلا وأنا أصفعه على وجهه، تشابكنا بالأيدي وفرق الزملاء بيننا، وظل يصرخ ويهددني " سأجعل حياتك جحيما "، لكني لا أعتقد أنه يعنيها، هدأني عامر وطالبني بالاعتذار فلم أفعل وشعرت بالضغينة تجاهه هو الآخر، فقال وهو يشعر بخيبة الأمل

: هل تعرف أنهم يعملون معا، أعني هو والمدير صالح وعم حموده وفاخر وربما أكثر من خمس موظفين آخرين، أنت لا تقدر على عداء حامد

: أنا لست خائفا.

شعر بالإهانة فغادر مكتبي، وصلت لنهاية اليوم منبوذ من الجميع وأثناء نزولي من العمل رشني حموده بالمياه ثم قال بسماجة

: متأسف لم أشاهدك

وفي النهاية أنا هنا في الحافلة وحيد وكئيب كعادتي، أتمني تفريغ شحنة الفراغ والغضب بداخلي، وملأ جوفي بشيء يدفئني ويغير من طبيعة يومي، وبينما الأفكار تعبث بي وأطاردها في رأسي كما الليث خلف غزال يعدو، تجدد الهواء في الحافلة، حيث صعدت هذه الحسناء البيضاء كثلج القطب إلى الحافلة التي تقلني إلى المنزل، ترتدي سروالا ضيقا أزرق اللون، فوقه قميص رجالي الهيئة أصفر اللون، أكمامه طويلة، لها طلة ساحرة وبدنا خالص من الدهون كعود من القمح صافيا، هي فتاة جامعية على الأرجح فهي تحمل حقيبة سوداء على ظهرها وليست عليها آثار الكبر بأي حال، فبدنها لا زال طريا هائجا، نافر المحاسن المنتعشة بدماء حارة تلون بشرتها باحمرار طبيعي مثير، وشعرها متطايرا يجتذب الألباب على الرغم من وضوح خشونته التي تداريها الآت الكي بالبخار على الأغلب، وهي مرهقة كما يتضح من سيلان شهيقها وزفيرها بعفوية تنتفخ فيها الشفاه بعنفوان مبالغ في صدقه، ولم تمض دقيقة واحدة على دخولها الحافلة حتى بادر الشاب الطويل الأبيض الوسيم في المقعد الثاني من الأمام بالوقوف قائلا برقة وعذوبة صوت، ملتمع العينين مفتتن بها، وخالص الأعجاب المكتوم لها

: تفضلي بالجلوس

لتجلس هي محله بعد أن تمنعت لثواني، وابتسم لها لتظهر أسنانه المتناسقات وأنا أقف بعيدا لا ناقة لي ولا جمل، متسائلا عن سر الجمال الأخّاذ، ثم سمعت الشيخ الكبير في آخر العربة يراقبهما بحدة، ويتمتم بأشياء لم استبنها في البداية ثم دققت السمع به وأنا أخشى بداخلي أنها عادة سيئة لكنني قد فعلت على كل حال لأجده يسبح لله وينهي تسبيحه في كل مرة قائلا

: أستغفر الله العظيم

ذكرني موقف الفتى بسنوات الجامعة الخوالي، والفتيات الفاتنات اللاتي لم يعرنني انتباها يذكر، ربما لأنني لم أكن أشبه الفتى في

طوله المتوسط ولا بدنه المنتظم الرائع، وكنت هزيلا طويلا أشبه الفزاعة ولا تربطني بالوسامة صلة تذكر، وعلى الرغم من اتقاد قلبي بالمشاعر الهائجات الخالصات بالحب السليم، لم تتح لي فرصة واحدة لتبادل العبارات الحسنة التي احتواها قلبي طوال عمري سوى في سنتي الجامعية الثالثة وقد تجاهلتني، قد كان لي أصحاب كثر على خلاف اليوم ولم أكن قد تخلصت بعد من حب الحياة والغربة الدائمة للمستقبل، والسعي لغد يأتي بما حرمني منه خجلي، وقد صادقت في ذاك العام فتاة ليست فاتنة الحسن، لكنها مناسبة في صفاتها كما تصف أمي الفتيات المشتملات على مقدار ضئيل من الجمال، وكان أسمها (نسرين) ولست أذكر من قصتي معها سوى أننا كنا نجتمع معا في حديقة الجامعة، نبالغ في الوعود ونسرف في اختزال المشاعر قولا، وفي النهاية تخلصت مني عند أول فرصة سانحة لها لتدلف عالم الزواج من بابه الواسع، حيث تزوجت بابن عمها الذي لا أذكر أسمه، والذي كان أقل وسامة مني وأضيق أفقا، ومن بعدها لم أسمع خبرها أبدا، والآن في الحافلة ها هي الفتاة الحسناء تتجاهل وجود الشاب الوسيم رغما عن لمعان عينيها الظاهر في انعكاس المرآة في يد السيدة الأربعينية في المقعد أمامها والتي تركها الجمال حتى جعل عينيها تتقدان شررا وحسدا، وقد ظهر الأمر جليا الآن وهي تقف لتنظر إلى الشاب الوسيم الذي ربما يلخص لها أحلام ضائعات لم يعد لها الحق في طلبها، ثم نزلت السيدة في محطتها في حنين مغلوب.

اليوم هو آخر أيام العمل في الأسبوع التالي لحادثتي مع حامد، فاليوم هو الخميس من الأسبوع الثالث لشهر ديسمبر البارد، الشهر يفاجئني دائما بأحداثه، يحمل معه من الأخبار ما يعينني على احتمال بقية أشهر الشتاء الباردة، لكنه خيب أملي هذه المرة، فعندما وصلت إلى الشركة وجدت أدراج مكتبي مفتوحة والأوراق كلها مسلوبة، جاء المدير بنفسه عندما طلبت من الأمن البحث عن الفاعل

وصرخت فيهم وهو قصير وسخيف، لديه هيبة مثل أشرار أفلام السبعينيات وأشار لهم بأن يفتشوا المكتب جيدا لكن عن طريق ارتداء قفازات حفاظا على البصمات، قام بالتفتيش بحثا عن أثر يدل على الفاعل لكنهم فجأة أخرجوا من الدرج الأخير لمكتبي كيسا بلاستيكيا يحوي حزمتين من الأموال، نظرت حولي فوجدت الموظفين يتهامسون والمدير يثقبني بعينيه فقلت

: هذه الأموال لا تخصني

أشار لي المدير بأن أتبعه نحو غرفته ففعلت، أغلق الباب خلفي ثم أوقفني أمامه وقال

: توجد عندي شكوى تفيد بسوء سلوكك، وأخرى من عملاء تقضي بتلقيك رشوة من أجل إعطاء التراخيص وتسهيل التعاقد بل وحثهم على سرقة كابلات الشركة

ثم أخرج من درج مكتبه أوراق الشكاوي وأكمل

: خلافا لتلك الأموال التي لا نعرف مصدرها بعد والتي أخرجناها من مكتبك، يبدو أن موقفك سيء يا أستاذ عبد الحميد

: وماذا أفعل يا أستاذ صالح ؟

اقترب مني، وهو أقصر مني قامة وأسمن بدنا، قال

: أولا يجب إيقافك عن العمل وإحالتك للتحقيق، يجب أن تسير الأمور في مجراها القانوني كما تعرف

عرفت منذ دخولي إلى مكتبه أن الأمر لن يمر بسهولة، يبدو أنهم أوقعوا بي في النهاية وقد نال حامد انتقامه، أشرت برأسي للمدير حتى أخرج من المكتب فأذن لي بالخروج ولكنه أمسك بكتفي قبل أن أخرج من الباب وقال

: سأحاول مساعدتك لكن أولا يجب أن تساعد نفسك، لا يجب أن تصنع العداءات يا عبد الحميد فنحن جميعا هنا في مركب واحد

: ماذا تقصد ؟

: أقصد ما فهمته، يمكن لهذا الكابوس أن ينتهي وأنت تعرف كيف، غير هذا فاعتبر نفسك في الجحيم

خرجت من الشركة غير مأسوف علي، حددوا لي موعدا من أجل التحقيق في الأسبوع القادم، وبينما أنا أجلس في انتظار الحافلة رن هاتفي لأجد رقما غريبا عني يعلن عن نفسه، ترددت في الإجابة من عدمها لأنه لا تجيئني مكالمة من رقم غريب كل يوم، ولهذا وقع سحري لما يضفيه من غرسا لأشجار جديدة في العالم القاحل، إضافة للهاجس المريب الناجم عن الأمر من توقعات مريبة لأشياء مجهولة تنتظرنا في البعيد وتنظر لنا بأعين خافتات البريق، ودام ترددي حتى خمد رنين الهاتف وأعلن ترددي عن الفوز بجولة جديدة من النزاع المستميت بينه وبين الرغبة الدفينة للمغامرة والفضول المقتول رميا برصاص القلق.

مضت الدقائق وأنا أرقب سطح شاشة الهاتف كوليد جديد يبصر الأشياء في إعجاب وخوف، أوصلتني الحافلة إلى حيث توصلني في كل مرة ولا زلت أرتدي نفس الملابس التي كنت بها الأسبوع الماضي في العمل، وهي ليست عادة مني أو لقلة ما أمتلك من ملبس نظيف، بل لأنني مللت الحياة حتى ملّني التغيير، وقبيل انعطاف شارعنا عاود رنين الهاتف مرة أخرى وأدركت أنه نفس الرقم السابق فأجبت هذه المرة دونما تأخير أو اضطراب

: مرحبا، من معي ؟

جاءني الصوت الرجولي من الطرف الآخر بلهجة متغيرة لنبرة صوت مألوف، صوت لا رنين له، عميق ودافئ كجدّي

: مرحبا يا صديقي، أنت عبد الحميد، أليس كذلك ؟

كان في تلك اللحظة ولد صغير على درّاجة بخارية ضئيلة الحجم يعبر عن جواري، وظننته سيسرق الهاتف لوهلة عندما نظرت لعينيه الضيقتين الماكرتين الغريبتين عني، لكنه مضي عن جواري تماما دون أن يصطدم بي، فقط مخلفا أثار المياه الضحلة المترسبة في شقوق الشارع على سروالي، فوضعت الهاتف عن أذني وصحت فيه

: لعنك الله يا ابن الشياطين

جعلتني الحادثة حاد المزاج كسائق عربة الأمن المركزي في صباح مكدس المهمات، فأمسكت بهاتفي مرة أخرى وأجبت دون محاولة تذكّر الشخص صاحب الصوت المألوف

: بلي أنا هو، من أنت على كل حال ؟

تضاحك الصوت بطريقة غريبة على أذني، ثم أضاف مازحا

: لا زلت حاد المزاج يا عبد الحميد، أنا صديق الجامعة وسنوات الشباب الفائت يا حقير، لم تتذكّر صوت حبيبك حقا يا قذر؟ أنا سليمان الوريدي، هل تتذكر أسمي أم ضاقت عليك الحياة فنسيت الاسم أيضا؟

تذكرت الآن وبسهولة هذا الوغد صديق الجامعة، وكيف أنسى وغد يلصق الشتائم بنهاية كل جملة كزينة يوم التخرج ، سليمان الوريدي بنفسه يحادثني بعد كل تلك السنوات التي انقطعت فيها أخباره، وانقطع هو عن كل رفقاءه القدامى، فمذ طرحتنا الجامعة خارج مبانيها استقبلتنا سنة التجنيد بأيديها الغليظة، وعندما خرجنا إلى الحياة مرة أخرى لم تكن لنا نفس النظرة السابقة، وسمعت أنه لم يدخل التجنيد مطلقا وقد سافر إلى الخارج بتذكرة ذهاب فقط، وقد سقط عن الوجود في حياتي لكنه لم يسقط من ذاكرتي قط

: يااه، سليمان الوريدي بنفسه يحادثني، الصوت كان مألوفا وكنت سأعرف أنه أنت من خلال ألفاظك القذرة يا حقير، فمن غيرك سينعتني مازحا بأقبح الألفاظ، كيف حالك يا سليمان ؟

تضاحك مرة أخرى بصورة مصطنعة تماما، تخيّلت مظهره الآن وهو يضحك فضحكت؛ فقد كان قصير، ممتلئ قليلا عند الفخذين ورأسه مربع الشكل كعلبة زبد، وله في بطنه بذرة كرش يحتاج للرعاية والراحة لينمو، كان يهز كتفيه كلما ضحك بشكل يجعلني أسعل من فرط الضحك، وكان يتحمل سخافاتي عليه لأنه أسخف منّي، قال لي

: أنا بخير يا صديقي، كيف أحوالك أنت، لقد اشتقت إليك حقا وإلى الأيام الماضية، يجب أن أراك حقا ولا تتهرب، أنا هنا في مصر منذ خمسة أعوام

فاجئني حديثه لما لدي من معلومة بأنه خارج البلاد، والآن يؤكد لي وجوده في مصر ومنذ خمس سنوات كاملات دون أن يعرف أحد، أو لعل الجميع سواي قد عرف، لكن حتى لو رجع فهل سيهتم برؤيتي لهذه الدرجة؟، فأجبته باختصار مؤجلا أسئلتي الفضولية المتنامية إلى ما شاء الله

: أنا بخير الحمد لله، لقد سمعت منذ فترة طويلة أنك قد سافرت إلى الخارج، وقد انقطعت أخبارك من حينها، لكن أنا سعيد لسماع صوتك، إذن فلنتقابل ليس عندي مانع، أنا أعمل طوال الأسبوع عدا الجمعة والسبت

ثم تذكرت أنني موقوف عن العمل لكني لم أبدل ما قلت، أجابني هو الآخر بسرعة واختصار شديدين، مما جعلني أشعر بلهفته للقاء

: يوم الجمعة مناسب، في أي مكان ترغب أن نتقابل، تخيّر المكان، وأنا موافق وسأدفع أنا

لست أعرف مكانا مناسبا للقاء إلا المقهى على ناصية شارعنا، لكنني لست أعرف هل تناسبه أم لا، فقديما كنا نلتقي على المقاهي لكنني لن أبادر بالاختيار

: لا أعرف تخيّر أنت..

صمت قليلا فيما بدي لي أنه يفكّر ثم أجاب

: ما رأيك أن تزورني في منزلي؟ أنا أسكن في الزمالك، لو يناسبك فالعنوان هو ١١ شارع البستان، اتفقنا ؟

الزمالك!، على الأرجح لم يكن المقهى على الناصية ليناسبه

: اتفقنا

ظهر لي أن صوته فرح وهو ينطق جازما

: حسنا، الجمعة القادمة في الثالثة والنصف عصرا، سأنتظرك يا صديقي لنقضي اليوم معا، فلا تنسي، إلى اللقاء

كل شيء في الحياة يحدث بسرعة، أوقفوني عن العمل بسرعة وأحالوني للتحقيق بسرعة، في الأمس لم أكن أعرف بوجوده في مصر وكنت قد نسيت شبابي على الأغلب، واليوم أعرف أن صديقي المسافر موجود في مصر، بل ومنذ خمس سنوات وأنا لا أعرف شيئا؟ وأيضا دعاني لأقابله هكذا بسرعة، للحياة مصادفات متعددة الألوان والأشكال، وللقدر منحنى لا يمكن توقعه، لم أذهب إلى حي الزمالك منذ ذهبت إلى (ساقية الصاوي) منذ سنوات قليلات لم أعد أذكر عددها، وكانت زيارة عابرة، واليوم سأذهب لأزور رجل تجمعني به صداقة تضرب جذورها في أعماق الذاكرة

: إلى اللقاء

مضى اليوم كئيبا مملا، جلست في غرفتي المظلمة دون حراك، أفكر في حامد وما فعله بي، وقلة حيلتي، تملكت مني العصبية فصدمت

الحائط جواري بقبضة يدي، تألمت على أثر ذلك، لكن لم أندم، خاصة وأنا أتخيل وجه حامد وعم حموده وأنا أكيل لهم اللكمات، خرجت من غرفتي بعد العصر، قابلني مصطفى جعفر عند محل عم خليفة حيث كنت اشتري علبة سمن نست أمي جلبها كعادتها، وكان مصطفى قادما من مكان لا أعلمه كالعادة، لكن نظيفا ومهندما ووسيما كالعادة، صافحني بحرارة وهمس في أذني

: ليلة رأس السنة قد اقتربت، هل لديك خطة ؟

فأشرت له بعلامة من رأسي ومن كتفاي أنه ليست لدي مشاريع لهذا اليوم، فظهرت عليه علامات خيبة الأمل فهمس لي مرة أخرى

: دع الأمر لي يا صديقي، سهرتك هذا العام مسئولية مصطفى جعفر، سأجعلك تعيش سهرة تحلف بها لسنة قادمة

وهو يحب كثيرا أن يذكر اسمه بنفسه كأنما يتحدث عن شخص آخر، ثم جلب له عم خليفة بقية المائة جنيه التي دفعها وكيس أسود به مسحوق يشبه التمر هندي، وبعدها غمز لي قبل أن يقول لعم خليفة

: تسلم يديك، موعدنا هذا المساء على المقهى

وكاد يرحل قبل أن يلتفت لي كأنما نسي شيئا، وسألني مباشرة دون مواربة

: ما رأيك أن تسهر معنا الليلة على المقهى؟ سنلعب الدومينو ونشرب الشاي معا، أنا وعم خليفة وعم سمير الحلاق وسليم

ثم أكمل خليفة مندفعا بمعلومة جديدة على مصطفى كما يبدو

: وحلمي أيضا سيحضر

تفاجئ مصطفى للخبر فقد اتسعت حدقتا عينيه ورفع حاجبه مما جعلني أشتم أمرا، وأنا لا أجيد لعب الدومينو أو (الطاولة) أو حتى الشطرنج بل إنني أجهل كيفية لعبهم، وليس عندي مزاج لزحام

المقهى، ناهيك عن رائحة الأدخنة المجتمعة من الشيشة. لم أتحمس كثيرا للفكرة التي لن تعجب أمي أيضا، فبادرت معتذرا

: لا أجيد اللعب

: سأعلمك، لكن لو ليست عندك رغبة في المجيء فلا تحضر ولن أحزن، على كل حال فموعدنا في تمام التاسعة مساءا على المقهى

وضع مصطفى جعفر باقي أمواله في جيبه، ودلف عم خليفة ليجلب لي طلبي، تذكرت أن مصطفى أراد الحديث معي في أمر هام فقلت

: متأسف أننا لم نتقابل من أجل الحديث عن الرجل الأشقر

وقال مصطفى وهو ذاهب بعيدا عن الدكان بينما عيناها تشعان بالدهشة

: أنت تمزح ؟

ثم أمعن النظر في وجهي وقال

: عليك أن تنال بعض الراحة، نم قليلا

لقد اعتقد أني لا أنام بسبب آثار السهر المزيفة، لم أجتهد بالتفكير فيما قال واكتفيت بالعودة للمنزل، وحين دقت الثامنة أخبرت أمي أنني ذاهب إلى المقهى، وتوقعت أن تثنيني عن الأمر لكنها حمستني بشكل دفعني للظن أنها قد طلبت من مصطفى أن يدعوني؟! لكنه كان تلقائيا جدا في الحديث معي، لذا حاولت أن أزيل غبار الشك عن رأسي لأنه يتفنن في تشويه كل حدث جديد يدخل إلى حياتي عنوة، ونزلت مرتديا سروالا أسود فوقه كنزة صوفية زرقاء يغطيها رداء جلدي أسود ورثته عن والدي، اليد اليسرى للرداء كانت ممزقة فعالجتها بقطعة قماش على شكل شعار ناد كرة قدم لا أعرف عنه شيئا، فقط لأن الشعار لونه داكن وحجمه يلائم مكان الرقعة.

وحالما وطأتا قدماي أرضية الشارع أحسست نفسي غريبا عن حالة المقاهي والسمر، وأنني لست مستعدا بعد للتجربة، فأخذت نفسي صعودا، دلفت الشقة فتعجّبت أمي لأمري ولم تبادر في الحديث معي فلم أكلّمها، خلعت حذائي ودلفت غرفتي ونمت على سريري كما أنا حتى الصباح.

***

أقف أمام بوابة ضخمة لما يبدو أنها فيلا، قارنت بين قامتي وارتفاع عامود إنارة ينتصب جوار لافتة كتب عليها بالإنجليزية والعربية من أسفلها " سليمان الوريدي "، ضربت الجرس ففتح لي حارس البوابة وهو حارس وبستاني أيضا كما يظهر عليه من ملابسه، هو قصير القامة، أسمر البشرة غليظ الشفتين، وله شارب طويل ورأس مربع الشكل يستقر فوق بدن صلب، الممشى إلى الباب ليس طويلا للغاية فقد قطعناه في أقل من دقيقة بثواني، طرقت الباب الخشبي فلاحظني البستاني قبل أن يرحل وأشار للجرس المعلق جوار الباب على هيئة لسان ضفدعة فأحسست بالغباء وبقلة التقدير أيضا لكن لم أهتم، ثم انفتح الباب الأبيض ليطل من خلفه صديقي القديم وقد تغيّرت هيئته وملامحه عمّا عرفته. قامته لا زلت قصيرة وكتفيه عريضين، أنفه صار أقصر نتيجة لعملية تجميل كما يبدو، وبشرته تحوّل لونها إلى لون السمن (الأصفر الباهت)، لكن ذوق ملابسه هو ما تغيّر حيث صار يرتدي القمصان الملونة، وفوقها كنزات مزركشة الألوان كأنها ذيل طاووس، احتضنني حالما رآني ولم أحسبه سيفعل، وقال وهو في صدري

: أوحشتني يا رجل، كيف حالك

فقلت وأنا أتلفت حولي من الحرج

: بخير، وكيف حالك أنت ؟

عاد ليقف مرة أخرى ، وتظاهر بأنه يتفحص هيئتي (وإن كان يفعل حقا لكن دون بذل مجهود كبير)، وقال مباشرة

: لم تتغير كثيرا يا صديقي

ثم لمس على شعيراتي البيضاء القليلات في مقدمة رأسي، وعلى جانبيه

: ما عدا هذا الشيب المفاجئ، ويجب أن تنال بعض النوم، تبدو كأنك لم تنم منذ أشهر

ضحكت لأنه – وللمرة الأولى - مازحني بلا سباب وأجبت

: وأنت تغيّرت قليلا، لكن مزاحك كما هو

أدخلني لأبصر المكان من الداخل، والمكان اختصارا هو فيلا متوسطة الحجم تتكون من طابقين يجمعهما درج من الرخام الأبيض، طول الطابقين مجتمعين خمسة أمتار على ما أعتقد، والحيطان متناسقة الألوان، أغلبها أبيض مع القليل من النقوش الخضراء والزيتية والزرقاء، أجلسني في ركن فيه مقاعد مبطنة الأصل زرقاء الفرش، وكراس خشبية عتيقة الشكل واللون، وتبادلنا حديثا لا هدف منه سوى الترحاب، وشعرت في ابتسامته الدائمة وحديثه المستمر ودّا لم أعهده فيه منذ فارقته، فقد كان سمجا قليل الفهم، سيء الدعابة، لكنه الآن حاضر الذهن والدعابة، قليل حركة اليدين العصبية التي كانت لا أطيق محادثته عن قرب، بينما يرحب بي جاءت سيدة حسناء طويلة القامة، شقراء الشعر، ترتدي ثوب طويلا أسمر محتشم. سلّمت عليها عرّفني بها مختصرا كل العبارات الضمنية " زوجتي هالة "، أعجبني كونها مصرية، وتعجّبت لنفس السبب أيضا. تسامرت معه طويلا بينما هي تشارك في الأحاديث على مضد وفي أوقات نادرة، وقد عرفت منه أنه قد سافر إلى أمريكا وليس إلى أوروبا كما كنت أعتقد، وكان له عمّ هناك يملك محلا لبيع الطعام السريع، ولم يحادثني قط عن سر ثروته التي مكنته من امتلاك فيلا

كهذه، وعربة سوداء ماركة (bmw) خيالية الإمكانيات يسكنها خلف الفيلا، ولم أسأله عن الأمر تجنبا للإحراج فسنوات الفراق ستجعله يضمر لي شرا بعد سؤالا من هذا النوع، وسيحسبني أحسده على ما لديه، فمهما غيّرته الغربة، وبدّلت من صفاته، فعروقه الشرقية يتأصل فيها معني (الخوف من الحسد)، أما السؤال الملح الذي تبادر لذهني وسألته

: لماذا دعوتني لزيارتك ؟

وفي النهاية لم أحصل منه على إجابة شافية، تناولنا الطعام سويا على مائدته الخشبية في ركن آخر من المكان، حيث يضع ثلاث لوحات زيتيه مرسومة لوجهه، وهناك لوحة واحدة في زاوية بعيدة تجمعه وزوجته هالة، الطعام عبارة عن ديك رومي مشوي، وأطباق من الأرز الأبيض، مع صحون من شربة لسان العصفور والقليل من الخضر وشرائح الطماطم ، الطعام لذيذ إلى حد بعيد، شعرت بامتلاء معدتي منه بينما رغبتي في الاستزادة منه تلجم فاهي وأكبحها بصعوبة سقوط حبّات البازلاء إلى الأعلى، أشعر في كل حرف يقوله سليمان شعرت بأنه لا يعايرني بشيء، فكلما تحدث عن تمتعه بحياته في الخارج، وبلحظات الثراء التي يعيشها الآن، يرجع مرة أخرى ويعرج نحو نفس الموضوع " أنه لا فارق بين الناس على حسب مقدار ثرواتهم، فالمهم أن تنجو من الفقر، وبعدها عليك بالسعادة ولا شيء آخر، فحبذا لو امتلكت بيتا صغيرا تسكن السعادة في أركانه، بدلا من ثروة تري طمع الناس فيها جلي في أعينهم الخبيثة " ، وبخصوص حال سليمان فهو متوتر بما لا يمكن لبشر أن يحتمل، ومضغوط كأنما هو سيزيف اليوناني يحاول عبثا حمل الصخرة إلى أعلى الجبل، ولم أعرف سببا واحدا لنظرة الحزن الظاهرة في عينيه رغم ابتسامته، والساكنة في صوته رغم حلاوته، لم استبن أبدا سببا حقيقيا يجعلني أفهم الحقيقة الواضحة بأنه غير مرتاح، فقط لديه مسحة من فرحة لوجودي، وهي فرحة طفولية أحببتها رغم جهلي لسببها الحقيقي أيضا، ربما أبصر في ما لا تقع عليه عيناي، وعرف

في قيمة مما لا يتفتق إليه ذهني فهما ووعيا. أما بخصوص زوجه فهي تمزح قليلا، وتصمت كثيرا، تتضاحك على نكات زوجها باستهزاء مخفي، وتنظر إليه بود زائد عن الحد ظهر لي غير طبيعي بالمرة، مما جعل إحساسا خالصا تسرب إلى نفسي خطوة خطوة بأن هناك سحابة بينهما، تبرق وترعد في صمت، ثم في نهاية اليوم شعرت بأنها على راحتها أكثر، حيث حادثتني مباشرة لأول مرة، وكان حين تطرق الحديث بنا نحو الحرية في الاختيار فقلت لها مفتخرا

: أنا مثلا اخترت ألا أتزوج رغم رجاء أمي اللحوح، فقط لأنني لم أعثر بعد على من يكمّلني، دائما تشغلني فكرة التوافق النفسي والشعوري، ولا تشغلني كثيرا فكرة الزواج المادي الخالص، فما ينبت دون شعور يموت بلا مقدمات أمام أول اختبار فقدان محتمل.

ساعتها لمعت عيناها، وبدي أنها معجبة بأفكاري طوال اليوم، لكن هذه المرة قررت أن تتدخل في الحوار، وتدلف إلى صلب الموضوع قائلة

: ألم تشغلك ولا فتاة ؟

شعرت بالخزي والفخر في آن معا، الخزي لأنها تظنني فاشل مع النساء، والفخر لأنه يغالبها الظن أيضا أنني أتجنبهم بكبرياء، والحقيقة أنني غير هذا، فأجبت

: كانت عندي أكثر من علاقة لم تكتمل، ولم أخاطر كثيرا في الفترة الأخيرة، فآخر مرة شغلتني فتاة ظللت متعلقا بها، إلى أن سافرت عن مصر، وفي كل يوم أتابع طائرة تشق السماء نحو مطار القاهرة، أتمني أنها الطائرة التي تحملها عائدة إلى هنا، فقط لتتاح لي فرصة رؤيتها ولو لمرة واحدة، وحين أعرف أنها لم تصل، وأنها لو وصلت فلن أعرف غالبا أقول لنفسي " يا لك من شخص بائس قليل الحظ "

جلست فاغرة فاها في ذهول، وقد جعلتني أعتقد حقا فيما كانت تقوله حبيبتي المسافرة التي كنت أحملها بين جنباتي فقط، وعبارتها المغازلة في شخصي حين تمعن في النظر إلى قلبي قائلة " أنت كنز فريد " وليتها أخذت هذا الكنز معها، ساد الصمت لثواني وقبل أن يعقّب صديقي قالت زوجته باندفاع

: يا لها من أنثي سعيدة الحظ

نيتها ظلت خفية (على الأقل بالنسبة لشخصي الضعيف)، ولمحت شررا يشي بصدام وشيك بين الزوجين، وظهر هذا جليا الآن في قوله

: حسنا يكفي حديثا في هذا الشأن، أنا غير مهتم بالحديث عن تلك الأمور الشعورية، لا أعتقد أن لها وجودا حقيقيا في الواقع، هي مجرد كلمات نزين بها الأوراق ظنّا منا أنها تعطيها قيمة أكبر، لكننا في الواقع مخطئين، فالأوراق هي الأوراق، والحبر هو الحبر، لا شيء أكثر

في نهاية هذا اليوم ودّعني بحرارة وهو يصافحني، وهمس في أذني

: هل تريد معرفة السبب الحقيقي لسعادتي بوجودك ؟

كنّا نقف على عتبة الباب، وزوجه تنظر نحونا بشغف، لم يقتلني الفضول لأعرف وكنت سأقول " لا أرغب حقا في المعرفة، لست مهتما " وهذه هي الحقيقة، لكن الحماسة في عينيه تشتعل ليجيب عن سؤاله الشخصي، فأجبته

: بكل سرور، اخبرني أرجوك

شعر أن لإجابته أهمية كبيرة، ولهذا كان يؤجلها إلى الآن، وتذكّرت قول والدي " دع الناس يشعرون بما يريدون حقا أن يشعروا، لا تقاطع فرحتهم البسيطة في أقل التفاصيل، دعهم يبتسمون للانتصارات القليلة التي يحظون بها في هذا العالم الظالم "

: لأنك ترغب في رؤيتي لنفسي، أنت الوحيد الذي لم يبادر بالسؤال عني منذ أتيت إلى هنا، الجميع حاول التودد إلى بسماجة وثقل ظل، حتى دعاباتهم هدفها هو إضحاك أموالي، والتحايل على قلبي. أما أنت فمنذ دخولك عتبة هذا المنزل وحتي لحظة خروجك منه، لم تلونك المظاهر، ولم تغيّر من طبيعتك لإرضائي، لم تأت لهنا بحثا عن شيء، أنت هنا فقط لأنك تريد أن تكون هنا، لا أكثر ولا أقل، وهذا ما يعجبني

وانتهى اللقاء ببساطة، وبخصوص التعليق على جملته الأخيرة التي أعجبتني حقا، وعشرت فيها بإطراء شديد ربما لا أستحقه فدائما ما أرى نفسي أقل مما يعتقد الأخرين (بخلاف رأي أمي منخفض الحماسة بالتأكيد)، لم أجد جوابا لائقا بروعة ما قال، ولم أحسبه يفتقد الصدق لهذه الدرجة وإن ظل إلى الآن يفتقر إلى الروح، وهذا ما أحزنني حقا. فعلى الرغم من حلاوة الحديث في أغلب الأحيان، إلا أن روحه لا زلت حبيسة بين جدرانه غالية الثمن، وقلبه حبيس لتلك الحسناء التي سخرت منه أكثر من مرة في ظل وجودي العابر، تمنيت لو تمكنت من إدخال المزيد من السرور إليه، ورحلت مودعا إياه بما يليق، ثم عدت إلى منزلي وحيدا كما جئت.

وحين رجعت تمنيت لو أصادف مصطفى جعفر حتى أعتذر له عن عدم الحضور ليلة أمس لكن لم أجده، فتوجهت مباشرة ناحية دكّان عم خليفة والساعة وقتها قد جاوزت التاسعة ليلا بقليل، ولمّا أبصرني عم خليفة لم تبد عليه السعادة كعادته، بل أن سحابة من التوتر قد غزت قسمات وجهه، اقتربت منه وهو مكفهر الوجه هكذا وسألته بعد التحية

: هل استمتعتم بالأمس من دوني ؟

اضطرب قليلا، ونظر عن يمينه وعن يساره، ثم أجاب قانطا

: لم يحمل لنا الأمس الكثير من المتعة ؟

لم أفهم ما يقصد بكلامه حمّال الأوجه، كادت رغبة رؤية مصطفى تغلبني لأسأله عنه مباشرة، لكنني بدلا من هذا سألته

: هل ستسهرون اليوم أيضا ؟

بينما أتحدث جاءت امرأة سمينة في عباءة سمراء كلون بشرتها الداكنة، وسألته بميوعة صوت لم أعتقد حملها لمثله

: اعطني علبة سمن من فضلك

لم يجبني عم خليفة عن سؤالي، تظاهر بالانشغال بإحضار علبة السمن للمرأة الغريبة عن شارعنا وطال به الوقت يفعل، لم أدرك هل يقصد أن يحرجني لأمضي بعيدا، أم أن عقله مشغول بالتفكير في أمر، فوقفت أنتظر إلى أن عاد حاملا صفيحة السمن ببطء دون أن تستعجله صاحبة الطلب. حاسبها على طلبها ولما فرغ أعدت على أذنه سؤالي فتلفت كما فعل من قبل كفأر يخشى من قط في آخر الشارع، وقال

: لا، لا أعتقد أننا سنفعل الليلة، فلدي أعمال أخرى

فاض بي الكيل بحديثه الممل على غير العادة، فلم يبتسم الرجل لي منذ قدمت إليه اليوم قط، وفي عقلي تستقر كلمات حلوة من هالة – زوجة سليمان – الجميلة، وأنا لست مستعدا مطلقا للخروج من نشوة ترحاب سليمان نفسه بي، ولا بابتساماته لي هو و زوجه في آخر اللقاء، لهذا سألت خليفة بنفاذ صبر

: هل رأيت مصطفى جعفر، لا أجد له أثرا في الشارع، بل أنني تجولت قليلا في الأنحاء ولم أجده أيضا، هل سيسهر الليلة على المقهى ؟

رفع خليفة حاجبيه بشكل لا إرادي مما أثار حيرتي، خرج من داخل الدكّان ووقف جواري، ثم انطلق يحكي

: أنت إذن لا تسخر مني بتظاهرك بالجهل، يبدو أنك لم تعرف شيئا حول ما حدث البارحة، لقد اجتمعنا في المقهى ككل ليلة ثم تعارك – حموده – مع مصطفى لسبب لا نعرفه، فضربه مصطفى ضربا موجعا أمام الجميع

حمودة هو أصغر أبناء – سلامة – وسلامة هو أخطر مجرم عرفته المنطقة، أربعيني صلب البنية، طويل القامة، هو باختصار رجل لا أخلاق له ولا شرف، وغد لا يستطيع أحد مجابهته بدنيا، يخشاه الجميع هنا ويشيرون لتورطه في تجارة الممنوعات بشتى أنواعها، وكان في شبابه لصا حقيرا لكنه صار يسيطر على مجموعة من المجرمين، وله بعض العلاقات بمخبري الشرطة وبعض الأمناء، ويكفي معرفتك له بشكل شخصي حتى تمتلك حصانة أقوى من شعب المنطقة كله، سألت مستفسرا وأنا أخشى تورط مصطفى معه في مشكلة كبري

: هل الأمر خطير ؟

تنهّد خليفة وهمس في أذني

: حسنا سأقول لك كل ما أعرفه، لقد أبلغ مصطفى جعفر عن هارون الابن الأكبر لسلامة منذ أيام لمأمور قسم الشرطة، يقولون أنها جريمة قتل وسرقة بالإكراه لكنهم لم يتمكنوا من القبض عليه فقد هرب، حاول سلامة ابتزاز مصطفى ليسحب شهادته لكن مصطفى لم يستمع لشيء، وفجأة حدث ما حدث بالأمس، أخشى أنهم وصلوا مع مصطفى لطريق مسدود، لقد ركب رأسه وهو مصمم على شهادته، لقد حذرناه جميعا ولم يستمع لنا، قال أنه مصمم، قلنا له أن سلامة يده طائلة ويستطيع أن ينتقم وبشدة، بعد انتهاء سهرتنا عاد مصطفى جعفر إلى منزله منتش فرحا بشجاعته التي احتفل بها مهمشي المقهى كانتصار على ظالم يخشونه

ثم توقف خليفة عن الحديث مرتعدا حين سمع طفل جواري كان قد وصل قبل قليل دون أن يلاحظه، وقال الطفل

: أريد قارورة زيت ذرة، وكيس من الملح

ذهب خليفة إلى داخل المحل، وأنا أتحرق شوقا لمعرفة المزيد، ظل يرمقني من الداخل وهو يجلب طلب الولد الصغير الذي ينطق حرف السين كما لو كان الزال، أخذ الولد يمص إصبعه بفمه إلى أن جاءه خليفة، ثم بعدها أخذ طلبه ومضي، واستكمل لي خليفة قائلا

: ثم أثناء صلاة جمعة اليوم في مسجد – عمرو بن العاص – جلس سلامة في الصف الخلفي منتش وسعيد، كان يرتدي جلبابا أبيضا صافيا، ويسبّح بمسبحة صغيرة بحبّات خرز زرقاء وهو يبتسم للجميع، ولم يظهر مصطفى جعفر إلى الآن، وهي المرة الأولي التي يتغيب فيها عن صلاة الجمعة في الجامع منذ اعتدنا جلسته معنا في شارعنا مع أنه من شارع بعيد عنّا

أنهى خليفة حكايته بصوت خشن، وضغط على الأحرف الأخيرة من كل كلمة كأنما يؤكد عليها، ويخشي عليها من الضياع، وقد ثبتت كلماته في رأسه مما لا شك فيه، وجعلتني أرتجف خوفا على مصطفى من ابتسامة سلامة التي سمعتها، فالرجل ماكر لا قلب له، لم أضف حرفا واحدا وصعدت إلى المنزل، نمت وقضيت اليوم التالي في المنزل، نظرت عبر الشرفة لساعات من نهار السبت ومساءه ولم أبصر لمصطفى جعفر وجودا، فازدادت مخاوفي خاصة عندما جلس حموده في نفس المكان حيث اعتاد مصطفى جعفر أن يجلس على المقهى، وتبادل الضحكات بصوت عال جعل الجميع يدرك أن أمرا قد استجد في الحكاية الصعبة، وقد قام بعد أن دفع الحساب كاملا وهو يقول للجميع

: أشعر أن حظي سعيد هذه الأيام

وحين قارب منتصف الشارع سأله صاحب المقهى بعد أن خرج.

: لماذا تشعر بهذا

: لقد أتقنت لعبة الدومينو تماما، هي لعبة صعبة وبها نسبة حظ لا بأس بها، لكنني تمكنت من معرفة مفاتيحها كلها، لهذا أحسبني سأكسب خصومي فيها بعد اليوم بكل سهولة، إنه خبر سار أليس كذلك ؟

لم يفهم أحد ما يقصده، وبدت علامات التعجب على من سمع حواره التافه في ظاهره، وأحسبه يقصد أمرا لم يفلح في التعبير عنه بوضوح، فهو فاشل في الرسائل الضمنية كفشله في الفهم، كيف لجاهل مثله لا يعرف الفارق بين حرف أ وحرف ب أن يتمكن من صياغة جمله مخيفة، لكن ربما هذا ما أصابني برجفة لا أعرف سببها، فالأذكياء كلامهم يمكن تفسيره، ورسائلهم يمكن الاستفادة منها، أم الآن فلا شيء في حوزتي لأفهم.

لم يجرؤ أحد أن يذكّره بالضرب المبرح الذي تلقاه على يد مصطفى قبل يومين، لقد مسح به مصطفى أتربة الأرصفة فخورا، واليوم لا أثر للخزي في أعين خائنة، أعين في وجه يملؤه شقوق قاطعة توحي بعتاد إجرامه. ظلت أخبار مصطفى منقطعة عن الجميع حتى المساء، يتهامسون بالسؤال عنه خشية أن يسمعهم سلامة الجالس خلف طاولة دكّان – فراشة الأفراح -، هذا الستار الرقيق المغلّف لأعمالهم القذرة، وبقيت أنا وحيدا في شرفتي إلى أن غابت الشمس، وحتي ما بعد المغيب، وعندما ظل غياب مصطفى مستمرا تمنيت له السلامة، وتشابكت بداخلي مشاعر الفرحة لزيارة صديق قديم، ومشاعر افتقاد شخص لم أحسب غيابه سيؤثر في نفسي إلى هذا الحد، والحقيقة أن مصطفى جعفر لم يكن غائبا تماما، فهو حاضر في كل دعابة أحفظها عنه، وفي كل شخص داعبه بكلامه المعسول.

شعرت أنني لن أتمكن من الذهاب إلى العمل في الصباح وقد كان، لقد تغيبت عن العمل يوم الأحد، واستمرت حالة الارتباك تنتابني، شعور غريب عنّي وجديد على، كتناول التفاح مع الجبن القديم في آن معا، كسقوط المشاعر في بئر سحيق لتتجدد في ثوب نبتة تزهر من جديد، وظللت كما أنا وحيدا، وبقي مصطفى كما هو حاضرا غائبا، وحين سألتني أمي بصوتها الحاني قبل أن أنام

: هل ستتناول العشاء ؟

أصيبت معدتي بالتوتر، وتقلّبت كمزاجي مصدرة صوت جوع مكتوم، وتمالكت أعصابي كي لا أجيبها " لا مزيد من الطعام طالما مصطفى مهدد، طالما إنني خائف " ولم يكن هناك مبرر لتوتري المبالغ فيه سوى الخوف من مصيبة أحسبها ستحل، والريبة في أمر أحسبه قد تم في الظلام، فأجبتها وعندي ألف إجابة صادقة غير التي سأنطقها.

: لا أريد، لقد غلبني النوم

ثم ساد صمت من جانبها، وسمعت خطوات حذاءها المنزلي تمضي بعيدا عن غرفتي – ناحية غرفة نومها تحديدا – وأحسبني سمعتها تتثاءب بحرية قبل أن يهدأ كل شيء، ثم نمت بعد ساعتين على ما أعتقد.

*****

اليوم هو الإثنين، ثان أيام العمل في هذا الأسبوع الذي أوقفت فيه، تبا لقد نسيت تماما أن أذهب بالأمس من أجل التحقيق، على كل حال لن يحدث شيء هام في الشركة في غيابي، ستتوقف المؤامرات ضدي ليوم آخر فقط، لقد اقترب موعد ليلة رأس السنة أخيرا، هذا ما ذكرتني به أمي قبل نزولي إلى الشارع، فبدى خبرا عاديا لم أشعر به

إلا عندما تخيّلت كم يسكون من الرائع ألا أحتفل بمفردي هذه المرة، ذهبت إلى المصلحة لأستفسر عن التحقيق وأمر مصطفى شغلني لكن ما فهمته الآن من عبد الباقي قد صدمني، أنا لا أشعر حقا باتزان يسمح لي بالوقوف، صار البقاء واعيا دربا من الخيال، فعندما شاهدني شاردا على مكتبي، قبل وصول حاتم وفاخر، دلف ولم يكن يحمل صينية الشاي مما سمح له بتبادل حوارا مختصرا معي، بدأه قائلا

: لقد عرفت ما جرى رغم غيابك، هو خبر يصيب المرء بالحزن والذهول، من يصدق أنه فعلها حقا

لم يروقني حديثه الغامض، ولم تنتابني رغبة في تبادل ولو كلمتين معه، فسألته دون اهتمام متمنينا طرده من المكتب

: لا أفهم حديثك، ماذا تقصد بكلامك

ظنني أتظاهر بالجهل فسأل مستفسرا بشكل أثار حفيظتي وغضبي

: هل تمثّل أنك لا تعرف، لماذا أنت شارد الذهن إذن ؟

كدت أصرخ فيه وأنا أجيب.

: لا شأن لك بما يجعلني شارد الذهن أو غير شارد الذهن، لو عندك شيء فقله دون مماطلة فرأسي به ما يشغله.

قالها وهو يحك رأسه من المنتصف تماما، وبإصبع واحد

: لقد قبضوا على الأستاذ فاخر

أصابتني كلمته بشعور ممزوج بين عدم التصديق وقلة الفهم، قلّبت الأمر في رأسي وخشيت أنها مزحة سخيفة من الرجل فسألته

: هل تمزح؟ قبضوا عليه؟ لماذا ؟

في البداية ظننت أن الأمر له علاقة بذلك اليوم الذي هروّل فيه نحو المنزل متظاهرا بإعياء ولده، لكنني أدركت كم أنه وغد لا يستحق الشفقة، فالأمر لا علاقة له بسرقة، أو حتى جريمة قتل، إن الأمر له علاقة بتهمة لم أحسبها موجودة، فقد ظننتهم انتزعوها من كتب القانون كما نُزعت من قلوب الناس، ملخص القول أنه قد أعطي ترخيصا مخالفا بالكهرباء لأحد المصانع الذي اشتعل، الأمر ما كان ليأخذ هذا المنحى الخطر لو أن المصنع قد احترق بالعمّال _ كما يعتقد عبد الحميد _ بل احترق وصاحبه داخله، وهو نجل رجل أعمال يصعب إحصاء ثروته، أو سلطته وسلطانه، وقد زجت النيابة بفاخر على زمة التحقيق وهو يستحق، لكن هل يستحقها وحده ؟، يأكل هذا السؤال في عقلي هو وأسئلة أخرى يبدو أن لا إجابة لها، لا أحد يملك لها حلا ؟ لا أعتقد هذا، بل أعتقد أن الحل واضح وبسيط لكنه عصيّ على الخروج من فيه إنسان لا حول له، إنه رئيس قطاع التراخيص بالطبع، الرئيس المباشر لفاخر الذي يسمع الجميع كلامه، فأنا أذكر حين تم تعيين فاخر موظفا، يومها كان سعيدا كطفل حصد لعبة، لقد كان غرّا وقد نجح مديره في التلاعب به، فكل قرش نتن يسقط في جيب أحدهم، نتاج حفنة من النقود يلعقها المدير – صالح - ثم يبصق الزائد عن حاجته إلى رجاله في المصلحة، وبالرغم من أن صالح يده طائلة كسلامة، فهو سمكة قرش يبتلع من يقف أمامه، أو يتجاهله عند استحالة كسبه، إلا إنه تخلّي عن مسؤوليته عند أول تهديد من حوت أزرق لا يرحم، وانقضى نهار هذا اليوم وأنا أحدّق بشدة في حاتم، فقد كان شريكا لفاخر في إصدار عقود الكهرباء، تظاهر حاتم بالانهماك في العمل وهو لا يعرف هل وصلني الخبر أم لا، أحببت تلك اللعبة المسماة بالتصنع، فسألته متظاهرا بالجهل

: أين فاخر؟ هل تعرف سبب تغيبه اليوم

نظر مباشرة إلى عيناي المتظاهرتين بالبراءة كثعلب ماكر بعد التهام نعجة، لم يعرف لملاحي تفسيرا فقال دون مواربة

: ألم تعرف، لقد تم القبض عليه على ذمة التحقيق ؟ هل سمعت عن حادثة احتراق مصنع الملابس في المحافظة ؟

قلت بمفاجئة مصطنعة

: بالتأكيد تمزح ؟ قبضوا عليه بمعني أنهم قبضوا عليه؟، لا، لم أسمع مطلقا حول هذا الحريق، ما دخله به على كل حال

أمسك فتحي بقلم خشبي أمامه، وأخذ يكتب به، أو يرسم أشياء فوق مكتبه، فلم أبصرها من عندي بالتأكيد لكن حركته عصبية للغاية

: هو من استصدر لهم الترخيص

سألته عن كل تفصيله يعرفها في القضية، وقتلت الموضوع معه بحثا، حتى شعر باحتقاري الدفين له فقال في النهاية

: لا أعرف شيئا يا عبد الحميد، لو أردت أن تعرف شيئا فقم بسؤال شخص غيري، أما أنا فليس عندي شيء لأقوله، ونصيحة مني يجب أن تصمت قليلا

فأجبته مستهزئا

: نعم ليس لديك ما تقوله، ولو أردت أن أعرف شيئا عنه ينبغي على أن أسأل زوجه وأولاده، لقد كان ولده مريضا في الأسبوع الماضي وكادت تنبت له أجنحة ليطمئن عليه، أخشى كثيرا على أولاده، فليرعاهم الله

لمحت في أعين حاتم شررا، ثم بريقا أشبه بغرغرة من الماء تترقرق فوق مقلتيه، ثم قام مهرولا ناحية المرحاض، وعاد بعدها شاحبا وقال غاضبا

: في الأصل أنت موقوف عن العمل يا عبد الحميد فلماذا جئت للمصلحة، لقد عرفنا أنك لص أو هذا ما يقال فلماذا تستمر في مسلسل البراءة خاصتك، يجب أن ترحل من هنا

حاتم واقع تحت سطوة الخوف لا محالة، وأنا لا حيلة لي أمام المدير، ولا ورقة في يدي لأزج بهم جميعا في السجن، ثم سألت نفسي " وماذا لو امتلكت دليلا عليهم ؟ هل ستقدمه للنيابة أم ستختفي مثل مصطفى جعفر ولن يسمع أحد عنك شيئا، وماذا أيضا لو زججت بهم إلى السجن، هل هكذا ستنتقم لأسرة الرجل الفاسد؟ وهل يستحق انتقاما يذكر؟" وكاد عقلي يشتعل فكرا وغيظا حتى عدت إلى منزلي متعبا كملاكم صرعه خصمه في الجولة الأولي بلا رحمة ليخسر بلا شرف، لقد ظننتني للحظات بطلا بأن أزعج حاتم متظاهرا بالبراءة، بينما أنا مشارك في جريمة الصمت الكبرى، أنا واحد في طابور التظاهر بالجهل وقلة الحيلة، قبيل نهاية اليوم صعدت ناحية مكتب مدير قسم التراخيص، عادل عبد الحكيم، فقابلني بوجه عبوس، ساهمت شعيرات ذقنه السوداء المترعرعة وعيناه الجاحظتين في إخافتي عبسا، وأنا اشتعل غضبا، ثم عندما بلغت مكتبه تراخيت وتخلّيت عن كل الأفكار الشيطانية بضربه أو صفعه على وجهه، وطلبت منه أن يبلغني بموعد التحقيق معي، فأخبرني أن أذهب إلى منزلي للأسبوع القادم حيث سيبدأ التحقيق في يوم الاثنين، ثم وقبل أن أغادر مكتبه قال

: أتمني أن تستريح في إجازتك فالعصبية واضحة على ملامحك، أيضا مظاهر قلة النوم، نل قسطا من النوم يا رجل

التفت له دون أن أجيب، ولم أفهم مغزاه أبدا، أشرت له برأسي بأنني موافق، فعاد ليقول

: بالمناسبة سنذهب لزيارة أسرة زميلك في المكتب لنواسي زوجه، سنقف معهم وندعمهم في محنتهم الكبرى فهل ستأتي معنا، سنتم الزيارة يوم السبت في تمام الرابعة من عصر من يوم السبت القادم سنصل إلى بيته بإذن الله

لم أفهم طريقة الباردة في الحديث كجبل من الثلج، ولا أعرف تحديدا لماذا لا يريد ذكر أسم فاخر صراحة أمامي، وشردت مرة أخرى في

خيالاتي وأنا أحطم رأسه فوق المكتب، ثم كافحت لأطرد الفكرة عن رأسي ورحلت عنه دون إجابة.

عدت إلى المنزل وأنا أتسول أخبارا عن مصطفى جعفر الغائب، سألت أكثر من شخص وكذلك حصلت على أكثر من إجابة، وكل الإجابات تدور حول اسم واحد يحيك الشر في الخفاء، كل الأخبار تتمحور وتلتف حول الأرجل الخشبية لكرسي سلامة على ناصية الشارع حيث يقبع في سكون مخيف، قضيت يومي تائها في أسئلتي الغريبة، مرهق كأنني جريت شهرا، وقلق كأن الأبدية ستفنني غدا، ومضي الثلاثاء في أثر الاثنين دون جديد، ثم جاء صباح الثلاثاء ممطرا، والسماء ترعد كصراخ مخيف، ودق هاتفي برنين يعلن عن رقم غريب فأجبت لأجد صوته أنثويا ناعما

: مرحبا، أنا هالة، أريد رؤيتك

لو شاهدتني الآن لأدركت أن حاجبي قد ارتفع عاليا ليجاور شعيرات رأسي، أجبتها

: نعم؟

: أنا حقا أريد مقابلتك، أعرف أنك قد تتعجب من طلبي، لكن هل تستطيع الوصول اليوم عند دار القضاء العالي في منطقة (وسط البلد) في تمام السابعة ؟

كل ما يدور برأسي أنها مزحة سخيفة من زوجها، لعله أجبرها على مكالمتي هاتفيا فقط ليجد شيئا يضحك عليه هذا المساء، وليجد طرفة يحكها لأصدقائه الجدد

: هل تمزحين ؟

أجابت بسرعة

: لا، سأنتظرك، من فضلك لا تتأخر

ثم أغلقت الهاتف بسرعة مما جعلني أقف في وسط الغرفة حائرا لا أعرف ماذا على أن أفعل؟ نظرت لساعة الهاتف فوجدتها الواحدة ظهرا فقلت لنفسي " اللعنة أنا لا أفهم شيئا " ترددت في أمري ثم غلبني الخوف في النهاية فقررت عدم الذهاب لأنها حتما مزحة سخيفة من زوجها، فهي لا تعرفني لتقابلني، ولو تريد مقابلتي فلماذا ستفعل في هذا البرد القارص، محال أن أصدق كذبتها تلك، ومضى الوقت إلى أن وجدت نفسي الآن أقف أمام دار القضاء العالي منتصبا كخروف نزع صوفه، مرتديا معطف رمادي لا يناسب لون بشرتي الفاتح، أحكّ باطن يداي بحثا عن دفئ بعيد المنال، شعرت بأنها لن تجيء بينما أنظر ناحية الشارع وأنا أقف جوار مخرج محطة قطار الأنفاق، وفجأة وجدت يد على كتفي وصوتها يترفّق بأذني

: عذرا، هل انتظرت طويلا ؟

التفت لأجدها خلفي تبتسم كما لم تفعل في منزلها الكبير، بدت متأنقة وهي ترتدي سروال رمادي فوقه كنزة بيضاء ويغطي كتفيها معطف أسود طويل، ولأول مرة ألحظ أن لها غمازتين تصهران برودتي، هي فرحة وتبتسم لمجرد رؤيتي مما أثار في نفسي أسئلة مبهجة واستفهامات مرحة لم أعتد طرحها مؤخرا، جلسنا على مقهي لم أعرف لها أسما، لكنني لقّبته غيبا " وطني "، لأنني فيه أشعر بالدفء المفتقد وبرجوع الحنين الضائع، لم تبادر بتفسير لقاءنا، ثم تركت غمازتيها يفرطان في العبث بمشاعري، ولديها فم دقيق لم أحسبه مذهلا حين تضحك كلوحة مبهجة جمعت ألوان الكون كله في عين طفلة تلهو بأعصابي، على الأغلب قد صنعت في سحرا مريبا، سحرا يضحكك من فرط القلق، ويأخذك من نفسك رغما عنك، يزيل العجز عن شرايين قلبك المتجمد، أنا لم أرد قطع لحظتها المختلسة، احتسينا كوبين من الشاي الدافئ المرطب لجلدنا المنكمش بردا، وتناولنا فطيرتين بالجبن من مخبز قريب، هناك على ناصية المقهى تقع طاولة بيع شطائر اللحم، وهي دكاكين صغيرة محظور وجودها على الأغلب لكنها تروق الناس، فبينما أدس الفطيرة في فمي غلبني الشوق

ناحية شطائر اللحم حيث يتكالب الناس كنحل خلية أبدي الشهية، أنا سعيد بلقائها، وأضحك على سخريتها التي تطال كل شيء، الوقت يقفز بنا بين موضوع وآخر، وأنا أضيع بين ابتسامة وأخري، شعرت بأنني كنت أحتاج للقاء، وتبددت مخاوفي قليلا غير أنني لم أتمالك نفسي في النهاية أن أسألها وبعد مضي ساعة على بداية لقاءنا في المقهى المنتشرة كراسيه في شارع جانبي رحب

: لماذا طلبتِ رؤيتي ؟

فأجابت ببراءة

: فقط لأنني أحببت رؤيتك مجددا

في العادة يقول الناس " لأنني أريد رؤيتك " لكنها دسّت كلمة أحببت في الجملة ببراءة طفل يدفعك ناحية محل الحلوى ليهنأ معك بالمثلجات، ومضى اليوم حلوا، نعم حلوا ولاذعا قليلا كزجاجة مملؤة بعصير البرتقال الصافي، ثم بعد مضي ساعتين لم أشعر بهما من فرط دهشتي بها، قالت وهي تنظر إلى عيناي تماما، فلاحظت لون عينيها الحقيقي وهو زيتي صافي، حيث تبدو عينها داكنة في الليل كجناح عصفور، وينكسر أسفل الضوء أكثر من صورة

: سأخبرك سرا، زوجي يراقبنا الآن وأنا أعرف، دائما ما يراقبني عندما أخرج، وتدهشه حريتي مع الآخرين، لقد قطع صلاتي بأصدقائي من فرط غيرته، لقد أطلقني اليوم خارج العش فقط ليهنأ بمراقبتي مضيئة، فقط لأنه يكتم لوني، وأنا لم أستطع كتم رغبة رؤيتك، أنت حر وحلو، لا أعرف ماذا ينبغي على أن أفعل، هل تعرف أنه يضربني ؟ أنا حقا أمقته بشدة، كثيرا ما يصرح لي بأنه سيقتلني لأنني أسخر منه وأنا لا أحسبه سيفعل فهو جبان، يحسبني أخونه دائما وأنا سعيدة بإزعاجه بتلك الفكرة، لكن دعنا منه فأنا سعيدة الآن في وجودك لذا فلا يهمني مطلقا أي شيء آخر.

لم أجبها، ولم ألتفت حولي مصدقا ما تزعمه، ربما عاودتني المخاوف القديمة بأنها مسرحية هزلية من إخراج صديقي القديم ولهذا دام صمتي، احسبها تبالغ في وصفي، ولست أعرف كيف أقدّر أن أفكر بطريقة صافية في وجودها الأخاذ، من فرط دهشتي بها ارتبكت ولم أحسبني أفعل، تراجعت عن اللين معها، وعدت صقرا كعادتي، ثم ابتسمت رغما عنّي وصارحتها

: أنا حقا سعيد بمقابلك رغما عن أي شيء، أنت حلوة وبريئة إلى حد بعيد، لم نتقابل سوى مرتين والآن أنت حرة أكثر، أنا لست ماهرا في الغزل ولا يليق بي أن أغازل زوجة صديق في غيابه على كل حال، ولست أعرف ما أنت بصدد فعله تحديدا، وأنا لا أصلح للمغامرات، ولست مستعدا للدخول في منازلة مع زوجك، ولا أعرف ما كل هذا التناقض بداخلي لكنه شعور غريب، شعور مريح ومزعج، هادئ وصاخب، مستقر وهائج، ليست عندي إجابة لأي سؤال قد تطرحين، ولكنني مستعد لسماعك دائما، لا تفرطي فقط بالثقة في شخصي الغريب

بسمت، ونفخت في قبضتها لتهدأ من غزو البرد لها، وقالت دون اكتراث لشيء سوى اللحظة التي هي بصدد إشعالها

: أنت نبيل، أنا معجبة بك، أعني أنني بطريقة ما لا أعلمها أحبك، لقد تسربت إلى من موضع حسبته قد مات " قلبي " لا أريدك أن تجيبني الآن على شيء، ولن أجيب أنا أيضا فقط سأرحل لأترك حرارة المفاجئة تأخذنا إلى حيث تريد هي وليس إلى حيث نريد نحن، سأكلمك قريبا جدا يا عبد الحميد

هل أنا أحلم؟ لا، لست أحلم، هي راحلة الآن من أمامي وقد لجمت كلماتها حواسي، لقد أحاطت بي من كل زاوية يتودد البرد إلى منها، وقفت خلفي فجأة وهمست في أذني " هو يراقبني لكني لا أهتم " ثم فركت شعر رأسي بيديها الناعمة وقد أحببت الأمر، عدت يومها إلى البيت بمفردي لكن لست وحيدا، شعرت بأعين تترصدني في كل

خطوة أخطوها، تمشيت في الشوارع بمفردي وفي واجهة زجاجية لأحد المحال التجارية رأيت رجل يقف على الرصيف الآخر في الشارع من خلفي، كان يرتدي قبعة تغطي شعرا حسبته أصفر لامع، لم أتبين ملامحه جيدا ولم أعره انتباها، لكنه ظل يتبعني في كل شارع أعبره حتى تيقنت أنه بطريقة ما يراقبني، يرتدي معطفا أسودا طويلا لامعا ولا يكاد ينظر ناحية شخص ما سوى دقيقة واحدة قبل أن يحيد بنظره إلى شخص آخر، وقفت لشراء شطيرة من أحد المحال فإذ به يقترب مني لكنه لم يتوقف، عبر من خلفي فقط وقد شعرت بالرهبة من طريقته الواثقة في المشي، عدت للمنزل في النهاية متجاهلا وجوده، بعدها أضجعت سريري في راحة وألم، دون أن أنظر نحو السماء الخالية من القمر، ثم نمت ولا شيء أكثر، وفي الصباح التالي صحوت أرجو للهدوء أن يستمر إلى الأبد، ونظرت إلى الشمس الخجولة لأجد طائرة تشق طريقها فابتسمت، ثم وبينما أنا في شرفتي أحسو الشاي سمعت دوي صيحة هائجة لم أستوضح ما تقول، نظرت للشارع بإمعان فلم استوضح لها مصدرا، ثم هدأ الشارع من جديد لربع ساعة كاملة، فعدت إلى الداخل وساعدت أمي في غسيل الصحون لأن جلدها العجوز لم يعد قادرا على المتابعة في البرد، وتذكّرت مرة أخرى أنني نسيت إصلاح سخّان الماء ولعنت ذاكرتي الضعيفة، لمّا انتهينا من مهمتنا المرهقة عدت للشرفة مرة أخرى لأسمع الخبر من الصوت كثيف الشجن لعم خليفة وهو يحادث زبونة تشتري الزيت منه تسأله عن سر الصيحة الصارخة، فأجاب

: لقد وجدوا جثة في صندوق القمامة المعدني لمنطقتنا، يقول الولد حسني بن الشيخ حامد إنها جثة مصطفى جعفر، وجدوه مطعونا في صدره وبطنه وقد نُحر عنقه كشاه يوم العيد

أردت لو أصرخ فيه " محال " فإذ بي لا أقدر، سمعت الخبر هكذا مصادفة ولم أردع نفسي عن تصديقه، توجهت إلى غرفتي وأغلقت الباب على نفسي، تدثّرت في الغطاء وكوّمت نفسي كجنين لم يحن

أوانه، وبقيت هكذا حتى المساء حين دقت أمي الباب لتعلن عن تزمرها من خلوتي، خرجت وقصصت عليها ما سمعته فقالت أنها عرفت الخبر من جارتنا سعاد ثم ترحّمت على مصطفى جعفر فقط، وباشرت في مشاهدة فيلما قديما لعبد الحليم حافظ وزبيدة ثروت، هالني أنها لم تفزع لخبر الوفاة، وجلست جوارها مذهولا، تحركت الصورة في التلفاز مع مضي الوقت رغما عن وفاة الأبطال، ظل شريط الفيلم يعرض حتى انتهي دوره وذهب ليغط في ثبات عميق ملتفّا في شريط مصمت لا حياة فيه، وبقيت والدتي تقلّب في القنوات بحثا عن شريطا آخر، قمت وأنا مذعور بفكرة الوفاة نفسها، ماذا يعنى أن يموت أحدهم فجأة دون وداع أو عناق طويل حار، كيف تستحل الروح الخروج بعيدا عن أصحابها، حسنا الأمر ليس غريبا ما دام أصحابها سيحين أوانهم عن قريب ؟، في اليوم التالي قضيت النهار أبحث عن سبب لوفاة مصطفى جعفر بتلك الطريقة البشعة التي تأكّدت منها ولم أجد، بالطبع لم أقدر على مشاهدة الجثة لكنني أدركت كونه تم طُعنه بآلة حادة عدّة مرات ونزف حتى الموت، وعندما حادثت عم خليفة حول فكرة إقامة عزاء لمصطفي أجابني بتلقائية

: وما شأننا بذلك؟ هو ليس من أقاربنا في النهاية، نحن بالكاد نعرف مكان مسكنه، فليرحمه الله ولنكمل نحن حياتنا

أجبت بعصبية

: وحقّه يضيع ؟ من قتله ؟

التفت خليفة، ثم جحظت عيناه فجأة وقال

: لا شأن لنا، نحن لا نعرف شيء، حقه عند المولى عز وجل، وربما قد يكون لديه ثأر عند أحدهم فقام بقتله، هو لم يكن نبيا ليخلو من الخطأ، فمثلا لا نعرف له مصدرا للرزق، لربما يتاجر في الممنوعات ونحن لا نعلم

: هل تصدق ما تقول ؟

صمت الرجل قليلا وقال

: لا أحد يعرف الحقيقة

غضبت، ثم رحلت وفي نفسي يتردد قول " يستبيحون تلويث سمعة الضحية ويتبرأ الجميع من دمها بينما الجاني جليس ناصية الشارع دون عقاب أو دليل سوى ابتسامته المتشفية "، دماءه ظلت حبيسة في صندوق القمامة لساعات قبل أن يتطوع أحدهم بغسل الصندوق، عادة لا يقوم أحد بغسل صندق قمامة لكنه الخوف من الموت، فالدماء ستذكّرهم برائحة العالم الآخر، العالم حيث تتساوي الرؤوس وتعلن الحقائق، فهنا ستظل حقيقة واحدة لا تقبل الشك وحولها الألاف من خيوط العنكبوت تغزل الصمت أبدا، لقد مات بهجة حارتنا، وانقضي كأن لم يكن، وبقي حالنا كما هو راكدا كبركة ماء لا حراك فيها، أصابع الاتهام نفسها تخشي التوجه نحو الكرسي الخشبي على ناصية حارتنا – كرسي سلامة – بينما أصابع الموت تلتف حول عنق مصطفى جعفر لتريحه من ألم الحياة الفانية. وجدت نفسي آخر النهار أثيرا للكآبة والفكر يأكل في رأسي دون شبع، وغلبتني الحياة حتى ظننت أن الموت أقرب لي من أمي، وددت لو أكلم هالة لأخبرها كم أنا حزين، كم أنا جريح لوفاة البري ونجاة الجاني المبتسم بلا شفقة والقابع في الظلمة رغما عنّا دون عقاب، وتذكّرت أن رقمها قابع في هاتفي فقمت من غفوتي وطلبتها عدة مرات لأسمع عبارة أن الهاتف مغلق، أخذت اطلبها طوال اليوم والنتيجة قدرا عظيما من خيبة الأمل، النتيجة صفرا لا قيمة له على حياة خسرت كل مكاسبها دفعة واحدة قبل أن تفقد معناها. ويوم السبت حادثني مديري في العمل ولم أجبه، وتشابهت عندي صورته وصورة سلامة حتى ظننتني جننت، وفي مساء السبت توجّهت ناحية بيت هالة تائها وضائعا في نفسي. وحين وصلت وجدت أفراد من الشرطة أمام البوابة وحين سالتهم عمّا يقومان به أجاب الأسمر فيهم صاحب الشارب

: جريمة قتل، مالك هذه الفيلا قد قتل زوجته وهرب، يقولون أنه سافر إلى الخارج قبل أن يكتشف الحارس الجثة بيوم كامل.

: ماذا تقصد بقتلها ؟

ابتسم الرجل بصورة لا مبالية وأجاب

: ماتت

لم أحتمل الخبر، ولست أفرط في حماسة وصف الدمع حين يسيل، فقد بكيت يومها في منزلي حتى اهترأت عيناي، بكيت وصرخت وحطمت كل ما قابلني في الشقة، بكت أمي وقالت " لقد جننت يا عبد الحميد " وددت لو أصرخ فيها " لقد جن الجميع، لقد جن الجميع " وددت لو أدق عنق سليمان الوريدي لأنه اغتال حلما شابا في مخيلتي، لأنه اغتال عصفور حسبته جاء ليخلّصني، وددت لو أجبر سلامة على الاعتراف بذنبه ليرتاح قلبي وأنا اقتص منه بمفردي، لكن هل لو ماتوا لن يكبر غيرهم، سيعودون كالجراد أكثر عددا وأشد فتكا، وأنا سأظل وحيدا أمامهم، لماذا عرفت الحقيقة وحدي ؟ الجميع يعرفها لكن يختبئ أسفل منضدته كأنه زلازل الحقيقة المخيف، السماء تمطر صدقا على الرؤوس المغطاة بالرياء المقدس، نظرت إلى الشارع مباشرة عبر الشرفة، وجدت مصطفى جعفر غارق في دماءه تماما بمنتصف الشارع، مبتسما كأنه بُعث في ثوب الموت، يبتسم ويمد لي يده وأنا أقاوم رغبة عارمة في القفز.

لن أطيق السير مرة أخرى في شارعنا منتظرا ظهور مصطفى جعفر لينتقم لنفسه لأن الجميع أكمل حياته بعده دون توقف أو مراجعة، لن أنظر إلى المرآة حتى لا تطلع لي صورة هالة وهي تبتسم لي في ألم، لقد ساهم الكل في دفن الحقيقة، ساهم الكل في تأمين الجناة بالصمت والخوف، جميعنا سلامة، وكلنّا سليمان الوريدي، والمؤلم أكثر أننا أيضا الحرية الحبيسة والسجّان الغليظ.

مكثت في غرفتي اليوم كله، ثم اليوم الذي يليه، وهكذا حتى يوم الثلاثاء من الأسبوع التالي، أخرج فقط لتناول ما يبقيني على قيد الحياة، ثم في اليوم الثالث نزلت إلى الشارع واستمعت للكثير من الشائعات حول تورط أحد الرجال في مقتل مصطفى جعفر، سمعت عم خليفة يقول لأحد أصدقاءه على المقهى " لقد شاهدت سيدة في الحي المجاور لنا شيئا غريبا في يوم اختفاء مصطفي، ففي تلك الليلة استيقظت في الثانية بعد منتصف الليل وشاهدته يمشي في الشارع مع رجل طويل القامة يرتدي معطف أسود لامع، وله شعر أشقر طويل، وقد شاهدته أنا أيضا سابقا يذكر ذلك الرجل الأشقر في حديث مبطن مع سلامة، على الأرجح أن وفاته لها علاقة بذلك الرجل الأشقر الذي لا يعرفه أحد "، لا زلت قلقا بسبب الحديث عن ذلك الرجل الأشقر المجهول، ربما هو كذبة يرددها أهل المنطقة، أسطورة تتخفي وراءها الجرائم البشعة، صورة خيالية للخوف الساكن في القلوب، صعدت للمنزل مرة أخرى ودلفت غرفتي المظلمة كعادتها، وبينما أنا غارق في أحزاني انتشلني صوت طرق والدتي على باب غرفتي بإلحاح غير معهود، لم أجبها في البداية لكنها ولأول مرة حاولت فتح باب غرفتي، انتفضت واقفا وذهبت إليها قبل أن تشق طريقها للداخل، خرجت من الغرفة وأغلق الباب خلفي بسرعة، أثار الدموع لا زالت تفضحني لكن الغريب أن والدتي لم تبال فقد تجلى الخوف في نظراتها التي تحتضنني بها، قالت بينما تكاد ترتعش من القلق

: هناك ضابط يريدك

ذهبت نحو الباب والشك يعتريني فوجدت ضابطا، لم يمهلني كثيرا وأخذني كما أنا وهو يقول

: رئيس المباحث يريدك يا أستاذ عبد الحميد

نزلت معه من البيت وأنا أشعر بالخوف أو بمزيج من المشاعر التي لم أفهمها في البداية و لم أصدقها، وهذه عادة أصيلة في شخصي، فأنا لا أعرف تحديدا الشعور الذي ينتابني في لحظة سماعي لخبر

ما، وربما هي حالة عامة في جميع البشر لكنهم لا يعرفون - كما أشك - أو ينكرون، فالمشاعر والأحكام مختلطة مثل عصير من الفواكه ولا يمكن فصلها، فكيف بحق الله يعرف أحدنا أنه خائف فقط وليس يشعر بمزيج من القلق والخوف والحيرة في آن واحد، المشاعر التي نحس بها هي مزيج فريد لا يمكننا فصل مكوناته بسهولة، ولا يمكن الانفراد بعنصر واحد منه بثقة، فحتى ضوء الشمس العادي ينقس إلى سبع ألوان!

وصلت إلى مكتب رئيس المباحث، هو رجل طويل القامة في الأربعينيات من العمر وله رأس مدور وشارب كثيف يغطي شفتين غليظتين، يرتدي قميص أبيض فوق سروال جينز أسود، جلست أمام مكتبه المرتب في تلك الحجرة النظيفة التي يجلس فيها، أخرج من جيبه علبه سجائر وأشار بها ناحيتي وقال

: هل تدخن ؟

شكرته بإشارة من يدي ففهم أني لا أريد، لم يجلس على الكرسي المخصص له، بل وقف وتمشي ليجلس على الكرسي الواقع أمامي وباشر في الحديث بصوت غليظ

: هل تعرف لماذا أنت هنا الآن ؟

أجبت قاطعا

: لا

أمعن المحقق النظر في وجهي وقال

: هل نمت مؤخرا بشكل جيد ؟

لقد سئمت من تلك العبارة، فأنا أنام بشكل منتظم وصحتي جيدة ولا أشعر بألم ولا تصيبني وعكة مفاجئة، لكن تلك الهالات السوداء أسفل

عيني لها أسباب أخرى، والحقيقة إنني رجل لا يحب السهر، أجبته ببساطة

: نعم، أنا بخير

عندي بعض الشكوك لكن الأفضل ألا أظهرها، فعلى الأغلب أنا هنا للسؤال عن مصطفى جعفر، أو عن هالة ربما فقد اتسعت رقعة المصائب مؤخرا، أخرج من جيب قميصه صورتين مطويتين ووضعهما أمامي، فتحت الأولى لأبصر ما لم أتوقعه، جثة ممزقة بوحشية عن طريق ضربات سكين متعددة، والوجه سليم لا خدش فيه لرجل أعرفه جيدا، إنه حامد زميلي في العمل، لن أكذب وأقول " لقد شعرت بالحزن عليه "، لكن فقط شعرت بالصدمة، لقد تم تمزيق أحشاءه وهذا واضح في الصورة الثانية، لم أحرك ساكنا ولم أغضب مما رأيت، لم أشعر بالضيق لكن فقط القلق، سألني المحقق

: هل تعرف صاحب الصورة ؟

: بالتأكيد، هذا حامد زميلي في الشركة، ماذا حدث له ؟

أشعل المحقق سيجارة ثم نفث الدخان في الهواء أمامي وأجاب

: لقد وجدناه ممزقا هكذا في شارع جانبي لملهى ليلي، ماذا تعتقد أنه أصابه ؟

: لا أعرف

: هل تعرف أنه يذهب للملاهي الليلية ؟

أجبت وأنا أنظر لحافة المكتب

: لم نكن أصدقاء لهذه الدرجة

أمسك المحقق الصورة مني وقال

: يبدو أنه قد تم قتله من أجل السرقة

نطقت غير مباليا

: لا أعرف، ربما

أمسك المحقق الصورة الثانية التي تظهر أحشاءه الممزقة وأشار بها ناحيتي وقال

: لكن أنظر لهذه الصورة، لقد تم تمزيقه تماما، وهل تعرف فقد أطعم القاتل أحشاءه لكلاب المنطقة فقد شاهدنا الدماء على أرضية الشارع كله

سكت قليلا ثم عاود الحديث

: أعني أنه إذا كانت جريمة قتل من أجل السرقة، فلماذا يقوم القاتل بتمزيق أحشاء جثته ؟

بدأت أقلق من نبرته المحيرة، وسألت بلا مواربة

: لماذا أنا هنا يا سيادة المحقق ؟

باشر في القول

: أين كنت في يوم الجمعة الماضية ؟

: في المنزل

: ولماذا لم تذهب للتحقيق معك يوم الاثنين في الشركة ؟

تذكرت الأمر الذي ربما تناسيته عمدا وقلت

: لقد نسيت بسبب ما مررت به هذا الأسبوع

وقف المحقق وذهب ليجلس في مكانه خلف المكتب، وقال

: لقد سمعت أن حامد هو الذي قدم الشكوى ضدك في الشركة

بدأت أشتم رائحة إتهام مبطن في حديثه الماكر، لكني سايرته

: لا أعرف

سكت المحقق لدقيقة وطاله أوراق أمامه ثم سأل

: هل تضمر الضغينة له ؟، أقصد أنه تمت رؤيتك تصفعه على وجهه في العمل

أجبت باختصار

: رحمه الله، لم نكن على وفاق فقط

أندفع بالسؤال

: للدرجة التي تدفعك لصفعه في الشركة ؟

سئمت من الأسئلة، أنا لا أحب أن يتم سؤالي بهذه الطريقة، ناهيك عن فشلي في تبادل أطراف حديث مع أحدهم من الأساس، سمعت صوت طنين ذبابة جوار أذني وهو صوت يصيبني بالعصبية، ففيما يبدو أنه يتهمني ليس فقط بقتل حامد، بل وتمزيق جثته بهذه الطريقة الوحشية، أنا لست دبا لأمزقه هكذا، لو سألني أحدهم في العادة هل يستحق حامد الموت فسأجيبه بلا، لكن من منا يقول الحقيقة، كم مرة تمنيت فيها موت معلم المدرسة لأنه فقط نهرك أمام زملائك، فجميعنا لدينا تلك الأمنيات الشريرة التي لا نفصح عنها، بل وننكرها بصورة مثيرة للغيظ والسخط، وأنا لا أحب خداع نفسي، أجل تمنيت موته بالتأكيد، لكن هل يستحق الموت ؟، نعم يستحق الموت، وحتى لو لم يستحق، منذ متي والموت يأخذ بهذه النظرية في اعتباره، لم أتمالك نفسي وسألت

: هل أنا متهم بشيء ؟

بدى الرجل شاخصا في البداية، لم ينظر في عيناي تماما، أمسك أوراق من فوق درج مكتبه وأكمل

: لا، يمكنك الذهاب الآن

تعجبت بالتأكيد من إجابته لكني قمت فورا من فوق الكرسي وباشرت في التحرك، جاء صوته من خلفي قائلا

: يوجد سؤال أخير فقط

التفت له وأنا ممسك بمقود الباب فطالبني بالتقدم ففعلت، ثم قال

: لقد شاهدوه لآخر مرة في الملهى الليلي برفقة مجهول، رجل طويل القامة يرتدي معطف أسود لامع وله شعر أشقر طويل، هل تعرف أحد بهذه المواصفات ؟

كافحت لأخفي الصدمة بداخلي، فكيف بحق السماء عرف المحقق عن الرجل الأشقر، لم أعرف هل يقول الحقيقة أم يراوغني لأخبره عما سمعت عن الرجل الأشقر الذي وضع خطاب التهديد، أو الرجل الأشقر الذي شاهدوه مع مصطفى جعفر قبيل اختفاءه، أنا لا أحب المشاكل ولا التدخل فيما لا يخصني فقلت ببلادة

: لا أعرف شخصا بهذه المواصفات، هذه أول مرة أسمع عن هكذا شخص

على الأرجح لم يتوقع إجابة أخرى، قال بهدوء معتاد

: حسنا يمكنك الذهاب

نزلت من عنده والشك يحاصرني، من هذا الرجل الأشقر الذي يظهر دائما برفقة الموتى، طالما هو رافق حامد في ليلة وفاته، فما علاقته بمصطفى جعفر من الأساس، خرجت من قسم الشرطة وخرجت لطريق السيارات العمومي، حارة سيارة لليمين وحارة لليسار وبينهما رصيف، وفي الجانب الآخر رأيته لأول مرة، يجلس فوق مقاعد المحطة، معطفه أسود لامع وله شعر أشقر طويل، يرتدي نظارة شمسية ويمضغ العلكة، لم أتبين وجهه جيدا، اجتهدت لأبصر

تفاصيله لكن هناك شاحنة نقل وقفت أمام المحطة فأخفته ولم يظهر منه شيء، شعرت أنها فرصتي الوحيدة إليه وسؤاله عما حدث لمصطفى جعفر – فأنا لا أهتم بحامد فهو يستحق الموت كما ذكرت – جريت بين السيارات المسرعة مثل البهلوان، كادت سيارة تصدمني لكني نجوت بأعجوبة لأنال وابلا من الشتائم عن طريق صاحب السيارة، عندما عبرت الشاحنة ووصلت إلى المحطة لم أجده، سألتني السيدة العجوز الجالسة " هل تبحث عن أحد ؟ "، لم أجبها ولم أهتم بها، غادرت المحطة مرتابا مما يحدث، وأصابني الخوف في قلبي، فكما قال الضابط أن آخر شخص تمت مشاهدته مع حامد هو الرجل الأشقر، وآخر من شاهده أهل الحارة مع مصطفى جعفر هو أيضا الرجل الأشقر، وصلت إلى المنزل مجهد الفكر مثل مقاتل عاد من الحرب، فور ما عبرت من باب الشقة انطلقت أمي ناحيتي واحتضنتني باكية، ربت فوق كتفها وقلت

: لا تقلقي أنا بخير

ثم ذهبت نحو غرفتي، سألتني وأنا أتحرك عما إذا كنت جائعا فنفيت بإشارة من يدي، دلفت غرفتي المظلمة ووصلت إلى سريري دون الاصطدام بشيء، أمسكت بهاتفي المحمول وقلبت في الأرقام بحثا عن شخص أسرد له ما يجول بصدري فلم أجد، لكني تعثرت فيه برسالة نصية قد وصلتني منذ دقائق ولم أنتبه لها ومحتواها " لم تحبك "، لم أفهم ماذا تعني الرسالة رغم وضوحها، هل هي من سليمان، هل ينبغي أن أبلغ عن الرقم الذي بعثت منه الرسالة أم أقبع في الظل مثل عادتي، جلست على سريري ولم أستطع النوم، الظلام يعانقني وأنا مثل طفل في باطن أمه، أنا في ذلك السواد العظيم الذي أغوص فيه ويغوص في، أفكر في ذلك الأشقر الذي لا أعرفه، وأفكر بحزن في هالة ومصطفى، أو هكذا أردت أن أبدو، لم أعد أصدق شيء سوى الظلام في غرفتي، الظلام الذي يخفي الحيطان والأسوار، الذي يحررني ويطلق خيالي، ثابت أنا في سريري وعقلي حر يتحرك ويقفز بعيدا، ماذا لو كانت هذه هي الحقيقة الوحيدة، أننا

هناك في مكان ما مظلم ولا حدود له، والحياة ما هي إلا فكرة في رأسنا النائم، وأننا نعيش في كابوسنا الخاص، ونواجه مخاوفنا التي صنعناها بأنفسنا، مر الوقت كأنه لم يمر ومضى بسرعة أو ببطء لكنه مضى على كل حال، شعرت بالعطش، وذلك الشعور جعلني أحس مرة أخرى بالحياة، الحياة التي لا نعيشها فقط لأنه ليس لدينا خيار آخر، قمت من فرشتي بعصبية طفل يصحو من أجل المدرسة للمرة الألف في حياته، أخذت قارورة الماء من الثلاجة وذهبت إلى الشرفة لأحسو الماء في برودة الليل، طالعت ساعة هاتفي فأدركت أنها الثالثة فجرا، نظرت للشارع فوجدته خاليا، شربت الماء ونظرت مرة أخرى للشارع لأشاهد رجل قادم من بداية الشارع، يتحرك بخطوات واثقة نحو منزلي، وقف جوار عامود الإنارة الملاصق لبيت يقابلنا، ونظر نحوي في الشرفة، طوله الفارع يفزع القلب، شعره الأشقر يلتمع، ونظارته السوداء تحدق بي، وقف قبالتي كأنه يستمع لصوت نبضات قلبي، بعيد عني لكن أشعر كأني أسمع أنفاسه، ظل واقفا في مكانه هناك وشعرت أن الزمن تجمد، لم تعد هناك حدود للوقت ولا المكان، فقط هو وأنا، شعرت برغبة ملحة في مقابلته على الرغم من خوفي الشديد، شعرت أنه يحمل في نظراته نهايتي، لكني أردت المضي قدما إليها، نزلت للشارع ونظرت إليه ولم أتمكن هذه المرة أيضا من رؤية تفاصيل وجهه، خطوت نحوه بينما هو ثابت في مكانه، أشار لي بالتوقف عن الحركة وقال بصوت مألوف

: يبدو أنها النهاية

لم أجد ما أقول فأكملت السير نحوه وعندما اقتربت منه اشتبكنا بالأيدي، وكان يرتدي قفازا جلديا خشنا، أعصابه قوية فلم يبد أنه يهتز ولا يتردد أبدا، لم أرد أن أقتله، ظللت أردد سؤالا له طوال فترة صراعنا بالأيدي

: من أنت ؟ هل أنت من حول حياتي إلى جحيم ؟

أجابني وهو يصفعني بكف يده على رأسي

: بل أنت من حولها إلى جحيم

سقطت على الأرض فأنقض فوقي لكني قاومته وقذفته بقدمي بعيدا، وقفت وأرسلت ركلة إلى بطنه ثم ثانية إلى فخذه فسقط على الأرض، لكنه أمسك حفنه من التراب وألقاها في وجهي ووقف وأطلق قدميه للريح، ركضت خلفه في الشوارع الجانبية قبل أن يصعد فوق واجهة محل ويقذفني بحجر في وجهي، لم يصبني الحجر وتظاهرت أنه فعل، رأيت شعره الأشقر اللامع أسفل قبعته السوداء، وشعره يخفي إلى حد كبير تفاصيل وجهه لأنه يغطي فوق عينيه تقريبا فلا يمنع الشعر عن عينيه سوى نظارته السوداء، أخرج الأشقر مطواة من جيبه، أشهر السلاح وتحرك بخطوات هادئة نحوي وحاول طعني من جهة اليمين لكني تفاديت ضربته وعرقلته من قدمه فسقط على الأرض وسقطت منه المطواة بعيدا واختفت في الظلام، تمالكت أعصابي وجريت نحوه مرة أخرى قبل أن يقف لكنه ركلني بقدمه ولم أسقط فكررها لأسقط هذه المرة واستعاد توازنه وقبل أن يعاود الهجوم إذا بكلب أسود ضخم يقف جوار المحل الذي نتشاجر جواره، الكلب الضخم شتت انتباهه وأصابني بالرعب أيضا لكنه بطريقة ما أنقذ حياتي فقد خشي الأشقر منه عندما شاهده يركض نحوه، وتسلق واجهة محل عن طريق مواسير المياه وصعد فوق مبني من طابق واحد وانطلق يعدو بعيدا، وبينما يتملكني الألم كافحت لاستعادة توازني مرة أخرى وتجاوزت الكلب بمعجزة عندما اصطدم بحافة حديدية وانطلقت في أثر الأشقر لكن بهدوء وحذر حتى لا يشعر بوجودي، رأيته يدخل شارعا واسعا في نهاية الحي، رأيته في الطريق المظلم يمشي كأنه يعد الخطوات، مشيت في أثره عبر الشوارع الخاوية، على ضوء القمر اهتدي بمساعدة بعض أعمدة الإنارة الخربة مثل الحياة وتفاصيلها، القمر في السماء يرسل النور ليبتلعه الظلام مثل قطعة من الحلوى، وهو في قلب السماء وحيد لا أنيس له، وصل الأشقر إلى مستودع قديم لصيانة السيارات ولم أدخل

خلفه، شعرت أنه يستدرجني حيث سألقى الموت أخيرا، شعرت برهبة لقاء الموت بالفعل، أشعر به يحوم في المكان ويتنفس الهواء بنفس الشغف الذي يتملكني عندما أدخن سيجارة، أشعر به ينادي باسمي، شعرت برغبة في المضي قدما على الرغم من مخاوفي، مثل تلك الرغبة التي تدفعك لمشاهدة فيلم رعب تعرف أنك لن تحتمله، لكنك تفعل، والأمر لا يتعلق فقط بالفضول، بل هي غريزة البقاء التي تدفعنا لطلب الصعاب حتى نشعر أننا أنجزنا شيئا ما بالبقاء على قيد الحياة، سمعت صوت حديث دار بينه وبين رجل آخر، صوتهما مألوف على أذني، أحدهما هو سلامة على الأرجح أما الصوت الثاني فلم أتمكن من التعرف عليه على الرغم من إحساسي بأنه مألوف أكثر من صوت سلامة حتى، سكت صوتهما فجأة فانتظرت ساعة كاملة تقريبا فقد بدأ الصبح يرسل علاماته، يبدو أنني فقدت وعيي على الأرجح، دلفت باب المستودع ولم أجد أحدا، المكان شبه مظلم فلا يضيئه سوى مصباح واحد معلق في منتصفه تماما، يمكنني رؤية تكدس من قطع غيار السيارات، الكثير من الغرف الصغيرة الضيقة التي لم يحصل نصفها على أبواب، أعصابي متوترة، ويعزف قلبي نغمات صاخبة من الموسيقى السريعة المتقطعة، أردت التحرك والبدء في البحث عنه لكني سمعت صوت شخير، ذهبت ناحية الصوت فوصلت إلى غرفة ضيقة ومغلقة بعناية، نظرت عبر نافذتها فرأيت رجل نائم على سرير، الغرفة لم تكن مضيئة بالتأكيد، أمعنت النظر وشحذت حاسة البصر عندي فعرفته، هذا النائم هو هارون الهارب، على الأرجح هو صاحب الصوت الغريب الذي سمعته وربما أيضا هو صاحب الشعر الأشقر الذي حاول استدراجي إلى هنا، باشرت بالخروج من المكان وكلي رغبة في إبلاغ الشرطة بسرعة لكني تجمدت في مكاني من الخوف عندما سمعت صوت أنين مكتوم، وحشرجة تصدر من فم ملجوم، طالبني الخوف ألف مرة بالرحيل، لكني تحركت ناحية الصوت على أطراف أعصابي ليدلني إلى غرفة ضيقة خاوية، ليس فيها سوى رجل مقيد إلى كرسي خشبي قديم، صعقت عندما رأيت أن الرجل المقيد هو سليمان الوريدي!، لا

يمكن وصف نظرة عينيه عندما شاهدني، لقد غمره الأمل وظل يحاول أن يتكلم لأدرك أنه ملجوم وهو أمر جلي للعيان، فككت لجامه ووثاقه فأخذ يقول وهو يبكي

: لنهرب من هنا بسرعة قبل أن يصل

أمسكت يده دون كلام، وخرجت دون رؤية أحد أيضا، على الأغلب أنهما قد رحلا من باب خلفي أو مخرج ما، ركضنا خارج المستودع حتى بلغت شارعنا وبدون تفكير صعدت به إلى شقتي واتصلت مباشرة بالشرطة، وسمعت القصة كلها من سليمان الوريدي، لقد هاجم شخصان على الفيلا الخاصة به، وقتلوا هالة ثم خطفوه دون أن يعرف السبب، ربما من أجل السرقة أو أي شيء لعين آخر، ثم أودعوه في ذلك المستودع حتى عثرت أنا عليه مصادفة، حكيت له عما حدث اليوم وعن الرجل الأشقر، سألته هل أحد الرجلان اللذان خطفاه لديه تلك المواصفات فأجابني قاطعا

: نعم، أحدهم لديه شعر طويل أصفر

لقد اتضحت الرؤية تماما، لقد خدعت أنا أيضا بمنتهي السهولة، شعرت بالغباء الشديد لأني شككت في سليمان صديقي، وصلت الشرطة في الصباح وألقت القبض على هارون وسلم سليمان نفسه لتظهر المفاجئة الكبرى، لقد وجدوا في الغرفة التي يختبئ هارون فيها السكين الذي قتل به مصطفى جعفر وتم تمزيقه أربا، وعندها فقط بدأت أربط الأحداث بعضها ببعض في ضوء ما قاله سليمان وفكر فيه المحقق، لقد ارتكب هارون الجريمتين، الأولى بمساعدة أحد رجاله من أجل السرقة وارتدي فيها الشعر المستعار الأصفر الطويل والنظارة الشمسية للتمويه، وجريمة مصطفى جعفر تمت من أجل الانتقام، لكن ما الدافع وراء خطف سليمان ؟ ربما لأنه رجل غني وأرادوا أن يبتزوه مقابل حياته، بالنسبة لسليمان بدت الخيوط كلها مترابطة والأحداث منطقية لأبعد حد، فقط يساروه شك بسيط وهو كيف لهارون أن يصل لمنزل سليمان تحديدا، أعني هل هي

مصادفة أن يقوم بخطف صديقي وقتل زوجته بعد أيام من لقائي بهم، أم أن هناك سرا آخر لم يزل مخفيا عن الأنظار مثل الأسد في حقل السافانا، تظاهرت بالاقتناع وانا أستمع لسرد سليمان لما حدث من وجهة نظره المنطقية، أما في داخلي فلا أصدق كلمة واحدة، يبدو الأمر لي عصيا على التصديق، مليء بالمصادفات وغير واقعي، نعم منطقي لكن غير واقعي، لكن سليمان ارتاح للتفسيرات التي توصل إليها، ولم يبد قادرا على تغييرها، فعندما تتكون صورة في عقل إنسان يصعب عليه تبديلها، ليس لأنه لا يهتم بالحقيقة، بل لأنه غير قادر على التخيل، أو غير قادر على محو الأفكار التي تشكلت في ذهنه على هيئة حقائق، فمن بحق الله يمكنه أن يبدل حقيقة في رأسه حتى لو لم تكن حقيقية بالفعل.

بعد انتهاء التحقيقات الأولية وكل تلك الأحداث الفرعية الخاصة بالتحقيقات وخلافه عدت لحياتي مرة أخرى، وجدتها كما هي، خلافا فقط لمشكلتي في العمل التي لم أعرف لها حلا، ولم أشعر برغبة في الذهاب إلى المبنى الكئيب مرة أخرى لكني تحاملت على نفسي في النصف الأول من شهر يناير وذهبت إلى هناك من أجل السؤال عما إذا أصدروا حكما غيابيا في حقي دون تحقيق داخلي في الشركة أو أي شيء، لكني عندما دلفت غرفة المدير صالح تفاجأت لأنه ضمني إلى صدره وقال " أنت يا مسكين مررت بكل هذا وصدمت "، ثم عرفت أن محقق الشرطة قد أبلغه بما حدث معي من صعاب في الآونة الأخيرة وقد جنبني ذلك خوض شوط طويل من الأسئلة مع المدير، وفي النهاية عرفت أن التحقيق قد أغلق لسبب غير مفهوم وأني غير موقوف عن العمل بعد الآن لكنه قرر أن يعطيني إجازة لبقية الشهر، قبل أن أخرج من مكتبه سألت فقط لأبدو متحضرا

: ماذا حدث في قضية حامد

لكن المدير لم يبد مهتما وهو يقول

: لا أعرف، الشرطة تحقق في الأمر

خرجت من المكتب ومشيت في أروقة الشركة، يختلس الجميع النظر ناحيتي في خبث، يتهامسون فيما بينهم بغمغمة لا أفهمها، أردت الذهاب والسؤال عن عامر لكني اقتلعت الفكرة قبل أن تنبت في رأسي، وتوجهت نحو باب الشركة محاطا بالأعين والألسنة التي تتهمني دون مواربة بقتل حامد، وأنا بريء، لا أعرف كيف لهم أن يعتقدوا بإمكانية ارتكابي لجريمة بهذه البشاعة لمجرد أنه أراد أن يدمر مستقبلي المهني، ولأنه – كما يزعمون – عايرني بخسارتي لفتاة، رأسهم الصغير يعتقد أن تلك الأسباب كافية لأن أذبحه وأقتلع أحشاءه ثم ألقيها لكلاب الشارع لتلتهمها بشراسة وعنف، كم من الكراهية يلزمني لأتم هذا الفعل الشرير ؟، كم من الغضب يحتاجه أحد ما ليرتكب مثل تلك الجريمة الشنعاء، لم أتمالك مجرد الفكرة وكدت أتقيأ، خرجت من الشركة وتمشيت حتى محطة الحافلات، وفجأة انهمرت السماء في دموعها الماطرة فاغتسلت ملابسي، عدت للمنزل في النهاية مرهقا ومبتلا، بدلت ملابسي في الحمام ونظرت إلى وجهي الذي لم أعد أحبه، فأثار قلة النوم تفرط في الإفصاح عن نفسها بهالات سوداء أسفل جفناي، أغمضت عياني ووضعت رأسي أسفل الصنبور وتركت الماء يغمرني، ثم فجأة برز سؤال هناك في العالم السحيق داخل مخيلتي، وهو كيف للرجل الأشقر أن يتركني حيا، وكيف فقدت وعيي أمام المستودع دون أن ينتبه أحد؟ أعني لو أنه أراد التخلص مني يومها واستدرجني هناك لهذا الغرض فلماذا تجاهلني تماما؟ أشعر بالسؤال يطير بلا أجنحة ويعبر عن نفسه في كلمات منطوقة في عقلي، أكاد أسمعها كأنها آتية من خارج رأسي، كلمات تنطق بصوت داخلي أحسبه الحقيقة الوحيدة في الحياة المزيفة التي نحياها، سمعت صوت رنين الهاتف النقال ممزوجا بهدير الماء، ذهبت للصالة حيث تجلس أمي لمشاهدة حلقة كوميدية من الرسوم متحركة عبر التلفاز والصوت مرتفع للغاية ولم أرد إزعاجها فلم أطلب منها إخفاض الصوت كعادتي، فتحت الهاتف فوجدت رسالة نصها " هي لم تحبك، بل سخرت منك أيضا ولهذا قتلناها "، أصابتني الرسالة بالجنون خاصة بعدما راجعت البريد الوارد لأجدها

وصلتني من نفس الرقم الذي بعث لي بالرسالة في الليلة التي شاهدت فيها الرجل الأشقر، الرسالة التي نصها " لم تحبك "، كانت رسالة مبهمة في معناها ومختصرة في كلماتها، أما هذه فهي أكثر تحديدا وأبلغ معنى، سألت نفسي " لو أن هذه الرسالة قد بعثها هارون، فكيف له أن يرسلها الآن وهو مقبوض عليه ؟" لكني أجبت أيضا " بالتأكيد هذه الرسالة من شريكه صاحب الشعر الأشقر، أو من والده وغرضها تخويفي "، توجهت نحو الشرفة ووقفت هناك في الهواء ما بين تدخين سيجارة ومراقبة النجوم، والخوف يأكل أناملي ويعض قلبي، انتظرت حتى نامت أمي ثم قررت أن أتصل بالرقم الذي أرسل الرسالة ليعرف أنني لست خائفا منه، اتصلت بالرقم والغريب هو سماعي لصوت رنين الهاتف يأتي من داخل الشقة، إنه حتما هنا ليقتلني، أمسكت بعصى خشبية نتركها في الشرفة، وتحركت نحو صوت رنين الهاتف، صوت نبضات قلبي يمكن سماعه من على بعد ميل من هنا أو هذا ما شعرت به، الرعب يتزايد في رأسي والعرق يغلب برد يناير، توقف رنين الهاتف فطلبت الرقم مرة أخرى فإذ به يأتي من غرفتي، شعرت بنهايتي تقترب فقلت في نفسي " لن أموت سدى "، ذهبت للمطبخ وأحضرت سكين حاد، وفتحت باب غرفتي لأجدها مضاءة وخالية تماما، وهناك هاتف يرن فوق سريري، الغرفة مضيئة بفعل مصباح كهربائي عادي موصول في مكانه الطبيعي، ولا يوجد أي مدخل لغرفتي غير هذا الباب فبحث السماء أين ذهب ؟ ذهبت لغرفة والدتي ، أيقظتها وسألتها

: هل قمتي بتركيب مصباح في غرفتي ؟

فأجابتني والنوم يغلبها لدرجة أنها لم تفتح عينيها تماما

: لماذا أقوم بتركيب مصباح في غرفتك ؟

لم أفهم فسألتها بجدية

: ماذا تقصدين ؟ غرفتي مظلمة وأنا لم أركب فيها مصباح

قالت مندهشة

: هل تمزح، هناك مصباح في غرفتك دائما، أنت فقط تظل في الظلام طوال اليوم وتشعله طوال الليل وأنا لا أعرف السبب

لم أعد أفهم شيئا، هل أنا في حلم؟ حاولت استخدام تلك الخدعة التي أوقظ نفسي بها عندما أقبع في كابوس مريع، أغمضت عيني وحاولت التركيز بأقصى درجة ممكنة، فتحت عيناي وغمضتهما ثم فتحتهما مجددا ولم يتغير شيء، لم أرد إزعاج أمي أكثر فقد غلبها النعاس مرة أخرى، تركتها تنام وتوجهت إلى غرفتي مثل التائه في صحراء، وجلست في الغرفة المضيئة لأول مرة منذ عام، أو كما قالت أمي بأنها مضيئة طوال العام، لم أعد أفهم شيئا، أمسكت بالهاتف الذي بعث لي بالرسالتين وأنا عاجز عن الفهم والتخيل، نظرت لخزانة ملابسي التي وجدت فيها أمرا لا أذكره، الجزء الأيمن من الخزانة مغلق بقفل حديدي، بحثت عن مفتاح لها فوجدت فوق مكتبي الصغير سلسلة مفاتيح لا أعرفها، جربت المفاتيح في القفل حتى نجحت في فتحه عبر أحدهم، ووجدت فيه أشيائي التي أنساها وأذكرها، نظارة شمسية بعدستين دائريتين كبيرتين، وشعر مستعار طويل وأشقر، لم أحس بنفسي إلا وقد وضعته فوق رأسي، وارتديت النظارة ثم نظرت في المرآة الجانبية في باب الخزانة من الداخل، تذكرت كل شيء نسيته، رأيت نفسي أجلس مع هالة أصارحها بإعجابي بها من النظرة الأولى وقد غضبت مني وندمت لأنها أرادت رؤيتي والحديث معي كصديقين، ثم رأيت نفسي الحقيقية، ذلك الشخص القبيح خلف وجهي البريء، ذلك الرجل أشقر الشعر صاحب النظارة السوداء، رأيته فإذ هو أنا، بينما أنظر للمرآة التي شاهدت فيها نفسي لأول مرة رأيت ذكريات الأشقر أمامي مثل الحقيقة، رأيته يقتل مصطفى جعفر ويقطعه إلى أجزاء صغيرة بعد أن هدده بإفشاء هويته الحقيقية للشرطة عندما شاهده يصعد للمنزل في الليل مرتديا الشعر الأشقر، وأيضا فعلها مقابل أن يساعده هارون في خطف سليمان والتخلص من زوجته هالة، ترك أمر سليمان لهارون وصعد لغرفة هالة،

شاهدها نائمة مثل الملاك قبل أن يذبحها وهو ينظر إلى عينيها اللتان أحب وهما تجحظان من الفزع، ثم رأيته يراقب حامد يخرج من الملهى الليلي، أمسك به وذهب إلى شارع جانبي وهناك ذبحه ثم مزق معدته وألقاها في الشارع للكلاب حتى تلتهمها وهرب، رأيته أمام منزلي يشاهدني في الشرفة، رأيته في المستودع مع هارون، وبعدها رأيته يتحرك صوب منزلي، صعد وذهب لغرفتي ونزع الشعر المستعار والنظارة ونظر للمرآة التي أظهرت الهالات السوداء أسفل عينيه، ثم نزل ونام أمام باب المستودع لنصف ساعة، واستيقظ من النوم كأنه رجل آخر، أنقذ سليمان وصعد به إلى غرفته ثم أبلغ الشرطة، رأيت كل ذكرياته التي هي في الأصل ذكرياتي، رأيتها مثل الصندوق الأسود الذي يخفي أسرار الطائرة، رأيته ورأيتني شخص واحد، عرفت للمرة الأولى أن الحياة ما هي إلا كذبة تحتاج لمغفل حتى يعيشها ولأبله ليصدقها، نظرت للمرآة ورأيت نفسي الحقيقية التي لطالما هربت منها داخل الغرفة المظلمة وأدركت في هذه اللحظة أنه لا مزيد من الهرب، لكني جبنت أمام حقيقتي التي رأيتها لأول مرة، لا أقصد وجهي المعتاد ولا وجهي الآخر بل هما معا، رأيت الشخص الحقيقي أسفل جلدي، سمعتني أتحدث داخل رأسي مثل الصوت الذي سمعته في ذلك اليوم في المستودع وحسبتني أعرفه أكثر من أي شخص آخر وشعرت بالفزع من حقيقتي، وقلت " لقد فعلت كل هذا من أجلك يا عبد الحميد "، انسحب جزء مني إلى داخل الغرفة المظلمة الموجودة في عقلي فقط، شعرت بالحياة مرة أخرى، الحياة التي تدب في جسدي عندما ينام عبد الحميد، شعرت بملمس الهواء في رئتاي، وقلت

" لا تخف يا عبد الحميد أنت لم تقتل بل أنا فلعت، سأحميك من نفسك، ستصحو غدا لتجد غرفتك مظلمة وقد نسيت كل ما جري، يجب أن تنسي تلك الذكريات، فهي ليست لحياتك في الأصل وليس من حقك الاطلاع عليها، هذه هي حياتي التي أقتسمها معك في هذا الجسد التعيس فلا تكن أنانيا يا رجل، ولا تتدخل فيما لا يعنيك، نم يا

عبد الحميد في رأسي ولا تشاهد المزيد من حياتي، أنا الأشقر قد استيقظت الآن، لا تغضبني مرة أخرى حتى لا تجعلني أقوم بأشياء تندم عليها، فوالدتك في الغرفة المجاورة وأنت لن تفرح بصعودها للسماء، فكن مهذبا ونم بداخلي كما أنام بداخلك ولتدع الظلام يحتضنك، ولتدع الوقت يغرق في الفراغ".

*** تمت بحمد الله ***